

صلاح الدين

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

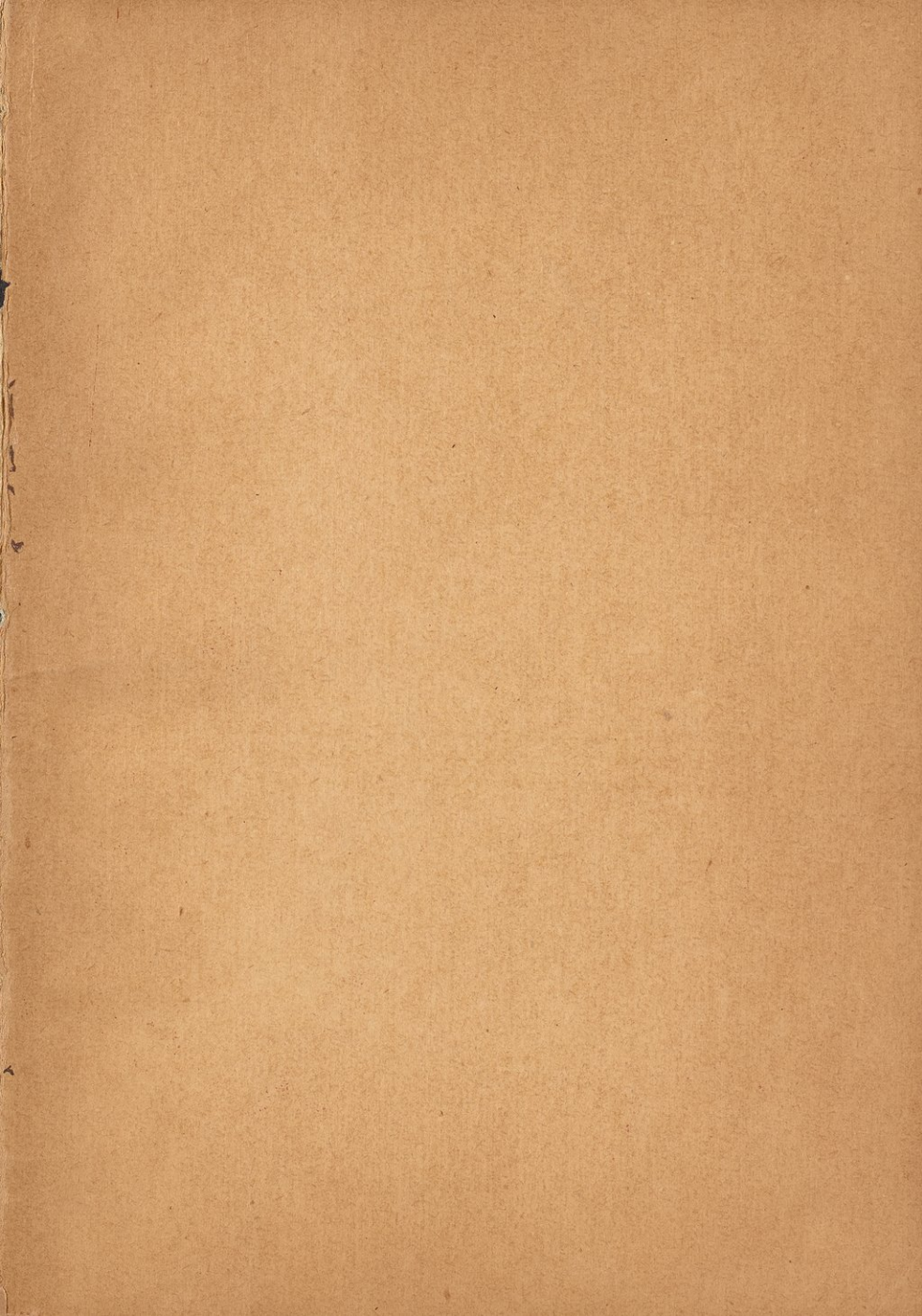


39141

صدى التزيين



عبد اللطيف صمزه



PT 15

Madamy
19/6/45

صلى الله عليه وسلم

بقلم

عبد اللطيف حمزة

المدرس بكلية الآداب

ALIBU LOO
1945
ST. LOO
VIA ALIBU

45-38141

893.791

Sa 3133

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY



بين كتابين

لقد فرق الزمن بين ابن المقفع وصلاح الدين فقد فصل بينهما نيف وخمسمائة سنة وكان صلاح الدين من رجال السيف ... بينما كان ابن المقفع من رجال القلم ومات رجل السيف ميتة هادئة مطمئناً على سريرته بينما مات رجل القلم مقتولاً شراً قتلة ... ولكن ... ولكن رغم كل هذا جمعت بينهما العبقرية والفطنة وهبة النفس وفنائها في سبيل الفكرة والعقيدة ... وجمع بينهما أيضاً قلم عبقري وأديب فذ وباحث مدقق هو الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة.

ويشاء الله إلا أن يفرق أيضاً - بين الكتابين كما فرق في الزمن بين الشخصين فكان ابن المقفع في حلة زاهية مشرقة ... على ورق صقيل فاخر ... ومحلى بالصور الملونة وكان صلاح الدين بطل الحرب وال تزال من حظه أن يصدر ابان الحرب - في هذه الحلة العسكرية الصرفة .. الحبيبة إلى نفس صلاح الدين والتي طالما ارتداها وأضفى عليها من عظمته وعبقريته الشيء الكثير

ولكن إذا أمكن للقارئ أن ينسى نوع الورق وشكله فانه سيجد في هذا الكتاب مثل ما وجد في كتاب الدكتور الأول دقة في البحث وحلاوة في الأسلوب وجزالة في التعبير وتجديداً في التبويب والترتيب ... هذه العناصر التي تكون طابعا ممتازاً للمؤلف ... الذي أحب ابن المقفع فأخرجه كما لم يخرجه انسان من قبل ... وأحب صلاح الدين فكتبه كما لم يكتبه إنسان من قبل .

ولا شك في أن هذا المؤلف القيم سيليقي مالاقيه كتاب ابن المقفع من نجاح لا من ناحية الكم فيما يباع في السوق فحسب ولكن من ناحية النجاح العلمي والأدبي أيضا وهو وحده هدفنا وهدف المؤلف الكبير .

رئيس جامعة الكتاب

٢١ - ٣ - ١٩٤٤

م . م . عبد المنعم

الاهراء

... إلى الذين يدعونه إلى الوحدة العربية ، وإلى الذين

يحبونه أنه يقرأوا فصلا من فصول البطولة الإسلامية

أقدم هذا الكتاب

عبد اللطيف حمزة



أَخْوَانٌ

كان نجم الدين أيوب رجلاً قوى الجسم جم الصحة خفيف الحركة رضى الخلق ظاهر الذكاء بعيد النظر ، وكان أخوه أسد الدين شيركوه شاباً لا يقل عنه في صفاته الجسمية والعقلية ، وكانا ولدين لأب كردي الأصل قيل إنه كان ينتمى إلى أرومة عربية عريقة . وكان يعيشان في أعلى العراق حيث يعتصمان بالجبال ، ويروضان نفسيهما على أعمال السيف وركوب الخيل ولعب الصواجح ، حتى لم يكدهم العراق يعرف لهما نظيراً في الفروسية التي عرفها المسلمون في القرون الوسطى . واشتهر أمرهما حتى فكر في اصطناعهما كثيرون من أصحاب السلطان لذلك الزمان ، ونظر أهل بغداد ، فإذا أولهما وهو نجم الدين يصبح حامياً للقلعة (تكريت) وناهيك بحامى هذه القلعة الهامة من قلاع دجلة . ثم نظر أهل بغداد فإذا مودة تشب كذلك بين هذا الفارس ، وبين أمير دولة من الدول الناشئة هي دولة الأتابكة . وهذا الأمير الأتابكي الكبير هو (عماد الدين زنكى) حاكم الموصل . وكان الجند يعرفون في هذا الأمير قسوة وعنفاً وشدة ، وكان الفرنج الذين أتوا من الغرب واستوطنوا بعض جهات الشرق ، واستقروا في هذه الجهات لحماية بيت المقدس يذكرون هذا الأمير فيذكرون معه الصبر والبسالة والجرأة ، وأما الرعية في الموصل ، فكانت ترى فيه ميلاً إلى الظلم والعسف ، حتى لقد كرهه أكثرهم وإن كانوا يخافونه ويهابونه ويقصون فيما بينهم أقاصيص غريبة في هيئته والخوف منه . وبقي الأمير على هذه الحال حتى سمع من يغنى على شط العاصي ليلة ما بهذا الشعر وهو قوله :

اعدلوا ما دام أمركو نافذاً في النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر

وكان صوت المغنى جميلاً رزيناً رهيباً من حلاوة اللحن وسكون النهر ورهبة الليل ، فتأثر الامير تأثراً عميقاً وبكى ، وتبدلت نيته في الظلم وأخذ نفسه بالعدل فمالت إليه الرعية التي كانت نافرة منه ، حتى كان يوم نظر فيه الأمير ، فإذا خيل الخليفة العباسي قد أظلت الموصل وكاد الامير أن يهلك لولا حيلة صديقه القديم نجم الدين أيوب ، فقد أقام له المعابر على النهر فلما جازها أمن الطلب وخاب قصد الخليفة . وكانت هذه الفعلة من نجم الدين سبباً في إثارة البغداديين عليه وتربصهم به فذشب الشر بينه وبينهم ، وأخذ هذا الشر في كل يوم يزداد شدة وقسوة ، حتى كان وقت عهد فيه أسد الدين شيركوه إلى قتل ضابط كبير من ضباط الخليفة بسبب شجار عنيف حدث بينهما . وإذ ذاك أصبح من العسير على الأخوين الفارسين أن يقيما في هذه المدينة التي ثارت ضدّهما إذ أصبح لأهلها عندهما مثل هذا الثأر العظيم ، ومن ثم لم يجداً بداً من الرحيل .

وفي الليلة التي اجتمع فيها الرأي على ذلك ولد لنجم الدين أيوب ولده صلاح الدين ، فتطير الأب لهذا الميلاد التبعيس ، لانه اقترن بخروج أبيه وعمه من ذلك العز الشاخ الذي كانا يفخران به (بتسكريت) إلى حيث لا يعلمان لها طريقاً يسلكانه . أو عملاً يطمئنان إليه .

ولكن فيم الحيرة أيها الإخوان الكريمان ؟ بالأمس أسديتاً لا أمير الموصل فضلاً لا ينساه ، وفي عنقه لسكا يد لا ينكرها ، فالיום تستطيعان أن تذهبا إليه فسيرحب بكما ، وسيحلبكما من قلبه وقومه وجنده المسمى ، وسينشأ شملكما في أرض مأسدة تقوى فيها مخالبه ، حتى يأذن الله له بالفتح ، ويكون من شأنه يومئذ ما سوف تريانه وتدركان به أنكما لم تكونا على حق في تلك الطيرة ،

ولا كنتما على حق في تلك الحيرة ، وأن المستقبل قد خبأ لكما عزاً ومجداً ، وجعل
في عقبكما الملك والسلطان !!

وإنهما ليذهبان الموصل ، وإنهما ليلقيان الأمير الاتابكي هناك . وإنهما
ليجدان منه وداً وعظفاً وعرفاناً بالجميل ، وإنه ليستبشر بهما ؛ ويرى في قدومهما
إليه آية مجده وصعود نجمه واتصال سعيه . ثم ما هو إلا أن يشركهما في حروبه
حتى يتم له فتح مدينة عظيمة هي مدينة (بعلبك) فيرى الأمير أن يكافئه به
بهما أحدهما وهو نجم الدين فيجعله حاكماً لها ، ويستبقى معه أخاه (شيركوه)
فيبقى أثيراً في بلاطه حتى يترك الأمير هذه الدنيا ، ويرث أبناؤه من بعده ملكاً
لم يزل في حاجة إلى الجهد وحاجة إلى التوسع .

وكان من أولاد هذا الأمير رجلا ورث عن أبيه التقى والدين ، كما ورث عنه
حب العدل والرعية ، وهذا الرجل هو نور الدين محمود . ونريد أن نتفق مع
ابن الأثير فنقول إن التاريخ الإسلامي لم يعرف أشد منه تأثراً بالاسلام وحباً
للالسلام ، وذلك باستثناء الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز . نظر هذا الأمير
الجديد . فإذا أبوه قد اعتمد في بناء ملكه على هذين الفارسيين العظيمين نجم الدين
وأخيه أسد الدين ، فوثق عرى المودة بينه وبينهما وأراد منذ بداية ملكه أن
ينتفع بهما فأعاناه على فتح (دمشق) . وبهذا الفتح الأخير ثبتت قدم الاتابكة
بالشام وتكونت لهم هناك مملكة قوية ففكر صاحبها إذ ذاك في أن يكافئ بها من
أجل الدين ، وأن يعمل بها لمصلحة المسلمين ، وأن ينتفع بها في طرد الصليبيين
وأن يمسح بها عار وجودهم في قطعة من أرض الاسلام بحجة المحافظة على
بيت المقدس .

والحق أن حياة نور الدين كانت كلها دروساً ينتفع بها المسلمون والمسيحيون

المجاورون في ذلك الحين ؛ حتى لقد فتن الناس في دمشق وغيرها من حواضر الشرق الاسلامى فتنة عظمت بشخصية هذا الأمير ، وظلوا يسمرون حولها سمرًا لطيفاً ، والشعراء معهم ينشدون الشعر في تمجيدته وتسجيل مفاخره .

والغريب في المجتمعات الشرقية لذلك الوقت — أعنى الوقت الذى سيطر فيه الدين على نفوس المسلمين إلى هذا الحد ، وكان لفقهائهم السلطان الأكبر على نفوس الشعب — نقول الغريب في تلك المجتمعات الشرقية إذ ذاك أن الناس فيها كانوا لا يستجيبون لخيالهم بقدر ما يستجيبون فيها لعواطفهم وميولهم فكانوا في كل ذلك مخالفين أشد المخالفة للأوربيين في العصر الوسيط ، وقد كان الأدباء من هؤلاء يميلون دائماً إلى تلوين الحقائق التاريخية بشيء كثير من الخيال إلى حد تصبح معه هذه الحقائق ضرباً من ضرب الأوهام ومثلاً من أمثلة هذا الأدب الجليل الذى تسمعه العامة ، فيلذ لها هذا السماع ، أو تقرأه الخاصة فتجد في قراءته كل متاع . وهذا الأدب الأخير هو ادب القصة أو الاسطورة وإذا ذهبت تبحث عن علة لذلك التقصير في خيال الشرقى ، لم تجد له من علة إلا الدين وفقهاء المسلمين . وقد كان من طبيعة هؤلاء المتفقهين أن يأخذوا أنفسهم ويأخذوا الناس معهم بتحرى الصدق وتوخى الحقيقة واصطناع التدقيق . وقد كان لذلك كله الاثر الواضح في الأدب العربى ؛ فلم ترج فيه الاساطير في الوقت الذى كان فيه للأسطورة الاوربية تأثير كبير .

فما حكى في دمشق ومجتمعاتها عن نور الدين — وهو حقيقة تاريخية لا تزيد فيها ، وايسر من وحى شاعر أو خلق أديب — إنه في الموقعة التى استنقذ فيها الأمير بعض مدن كانت بأيدي الصليبيين ، جاء سهم فأذهب عين أخ له اسمه (أمير أميران) فحزن الأمير لذلك حزناً عظيماً ، ولكنه مع هذا أقبل على أخيه يقول « لو كشف لك عن الاجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى !! » .

وأمثال هذه القصص التاريخية عن شجاعة نور الدين وعدله وعطفه على الرعية
كثيرة قد شغلت بها مجالس العامة والخاصة .

ومضى الناس في إعجابهم بسيرة نور الدين وكان لا يسر هذا البطل من قومه
وجنده ، إلا أن يصبح حب الجهاد ملء نفوسهم وغاية آمالهم ، وكانوا إذا ذكروا
للأمير بلاءه في جهاده ذكروا معه بلاء أصدقائه ، ووجدوا في سيرة الأخوين
الكرديين من اللذة ما يجدونه في سيرة الأمير نفسه .

غلام

عاش صلاح الدين الطفل بعض أيام طفولته في كنف أبيه بعلبك ، وهي البلد التي سقطت في يد زنكي ، فوهبها نجم الدين أيوب جزاء له على صنيعه معه . غير أن نجم الدين أيوب عاد فتنازل عن بعلبك لبعض أولاد زنكي بعد وفاته ، فأضاف إلى سابق فضله على البيت الأتابكي الكريم فضلاً آخر لم ينسه له أمراء هذا البيت ، فأحبوه وقد روه وأنزلوه من نفوسهم منزلة كبرى ، وما زالوا به حتى جعلوا منه قائداً أعلى للجيوش الدمشقية كلها ، ثم حاكما لدمشق نفسها . فانتقل الطفل مع أبيه إلى هذه المدينة ، وبها تربى وقضى بقية أيام الطفولة . فكان يختلف إلى الكتاب يحفظ فيه الحديث والقرآن ، ويتلقى فيه مبادئ الخط والنحو واللغة والشعر والحساب . والظاهر أن أباه لم يكن ليكتفي بذلك حتى أحضر له المؤدبين الذين تعهدوه وأتاحوا له فرصة أخرى للتعلم كما يتعلم أبناء الطبقة الراقية . على أن الأدر الذي تلقاه الطفل من الثقافة في دمشق إلى ذلك الوقت الذي كان ضئيلاً في مجموعه لا يستحق الذكر ، لأنه إنما أتم ثقافته بعد في مصر ، منذ أن كان فيها وزيراً فسلطاناً يتردد بنفسه على مجالس العلم ، ويستمع بنفسه إلى طائفة مشهورة من العلماء كالظاهر السلفي ، وابن بري النحوي ، وغيرهما من أقطاب العلم لذلك الوقت .

ومهما يكن من شيء فقد شب الطفل وترعرع في دمشق حتى أصبح يافعاً يعمل الشباب في جسمه وعقله وخلقه . وللشباب نزوة لا يستطيع دفعها ، ألفت بالفتى في أول أمره في أحضان اللهو والشراب ، فعكف عليهما وأعانه على ذلك منبته أرستقراطية أتيح له ولأمثاله من أبناء الأمراء والقواد وكبار الجيش . فلما كان عام تولى فيه عمه شيركوه إمارة الحج ، عجب الناس من هذا الفتى

كيف لم يهيه نفسه لانتهاز هذه الفرصة الثمينة التي سنحت له للقيام بهذه الفريضة .
ولكن — ما للفتى ولهذه الفريضة إذ ذاك ، وهو غارق مع أقرانه وندمائه
في اللهو وفي الخمر ، ينتقل منهما إلى الصيد واقتناص الطير وركوب الخيل ، ثم
يترك ذلك كله إلى مشاهدة الأمراء وكبار الجند — وهم يلعبون بالكرة فوق
ظهور الجياد ، ويمارسون هذا اللعب ليس حبا في اللعب نفسه كما يقول زعيمهم
الملك نور الدين محمود — ولكن ترويضاً لجسومهم على الحركة والنشاط ،
وتمريناً لخيولهم على الخفة في الرباط ، وإن لم يفعلوا ثقلت أجسامهم ، وثقلت معها
أجسام خيولهم ، فلم يخفوا القتال عدو . واشتهر في ركوب الخيل يومئذ من حاشية
نور الدين صديقه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حتى أن من يراه وهو على
ظهر جواده الذي يسبق به الريح لا يظن إلا أن هذا الرجل يموت بسبب
ركوب الخيل .

ومضى الفتى على ذلك حتى أتى اليوم الذي اشترك فيه بنفسه في هذا اللعب ،
وراض نفسه على ركوب الجياد ، وكان له من أبيه خير حافز يحفزه على أن ينزو
معه على الخيل نزوا . وبينما هو ممتط يوما ظهر جواده إذ عثر به الجواد عثرة
كادت تودي بحياته ولكن الله نجاه منها فنهض من عثرته لم يكده يصيبه شيء أكثر
من رضوض كثيرة في ساقه وألم شديد في ركبته . ومنذ ذلك اليوم كان هذا
الصبي لا يرى إلا متثاقلا في مشيته معتمد على إحدى رجليه أكثر من الأخرى
كأن باحداهما عرجا أو ما يشبه العرج . غير أن ذلك كله لم يمنع الصبي من مواصلة
اللعب بالكرة وأن يزوج بنفسه في غمار الأمراء والقواد ، وهنا في ميدان اللعب
أتيحت له فرصة أخرى خلط نفسه فيها بالقواد والامراء ، وأخذ كثيراً من
طبايعهم ، وانعكست عليه صوره من ميولهم ، وأصبح فيها قريبا من أبيه ومولى
أبيه — وهو الملك نور الدين محمود ، وناهيك بمن يسعده الحظ بمصاحبة
هذين الرجلين العظيمين ، انه لا بد متأثر بهما ، وانه لا بد مفتون

بأخلاقهما فتنة يشجر معها بأنه أصبح خلقاً آخر غير الذى كان عليه .
وذلك ما بدأ يحسه الفتى منذ ناهز العشرين ، وذلك ما بدأ يحسه الرجلان
من الفتى منذ آتسا منه مخايل النبيل والكرم والشجاعة واللين . وذلك ما جعل
نور الدين محمود يلتفت إلى هذا الشاب الصغير ، ويوليه كثيراً من عنايته
وعطفه ومحبته .

والحق أن الفتى صلاح الدين كان أهلاً لتقدير الملك العادل نور الدين ، وذلك
رغم ما كان يبدو عليه من هدوء ورزاة ووداعة يحسبها من براها نوعاً من
الخنول أو الكسل أو البلادة ، فى حين أن كان للورثة عملها من هذه الناحية . فقد
كان نجم الدين أيوب رجلاً لم يعرف الناس أرجح منه عقلاً ، ولا أدنى منه إلى
الهدوء والثبات ، وجاء ابنه صلاح الدين يرث عنه هذه الصفات التى ملك بها
أعصابه وسيطر بها على قلبه وعقله سيطرة جعلت منه رجلاً يصلح لذلك .

من أجل ذلك أسند الملك إليه كثيراً من الوظائف فى دمشق ، وكان من هذه
الوظائف التى وليها وظيفة (الشحنة) ، وفيها أظهر الباب من الحكمة واصطناع
الحلم ما فوت على منافسيه أغراضهم ورد كيدهم فى نحورهم وحملهم فى نهاية الامر
على الاعتراف به والخضوع له .

وهكذا ظل الفتى بين أبيه وعمه يتمتع منهما بالحب والتقدير ، وينعم من أجلهما
باحترام الكبير والصغير حتى لقد كان لا يترك مجلس الملك نفسه ، ولا كان
يرى أمراً أهمه أو أهم أباه وعمه ، حتى يتلطف فى الدخول معهم فيه . فكانت
هذه المجالس كلها مدرسة أخرى تعلم فيها الفتى ما لم يكن بدله من تعلمه وهو
الحرب وفنون الحكم .

وعاش الفتى زماناً فى دمشق على هذا النحو ، وكأن الزمن الذى أغمض عينه
بهمة عنه ، أراد أن يمنحه آخر فرصة يذوق فيها لذة الراحة من تحمل التبعة التى
كانت تنتظره بمصر .

فلسفة

حك

جلس نور الدين يتأمل هذه التركة التي خلفها أبوه ، ويفكر طويلاً في هذا العمل الذي بدأه أبوه ، فإذا التركة مثقلة بعظام الأمور ، وإذا العمل الذي بدأه أبوه — وهو مطاردة الفرنج من البلاد الإسلامية — محتاج إلى عناء طويل ، وإذا هذا الأمر الذي أصبح يضطلع به لن يتم حتى يكون هو طرفاً هاماً في سياسة الشرق لذلك الوقت .

وكان الشرق الإسلامي إذ ذاك موزعاً بين خلافتين عظيمتين ، أما الأولى فالخلافة العباسية المستقرة في العراق ، وأما الثانية فالخلافة الفاطمية القائمة في مصر . وبينهما عنصر دخیل هو عنصر الفرنج الذين أتوا إلى الشرق بحجة المحافظة على بيت المقدس .

ونظر نور الدين في هذا الموقف السياسي الدقيق ، فإذا في استطاعته أن يسقط الخلافة العباسية من حسابه ، فقد شاخت وبلغت من الأمر أرذله ، ولم تعد قادرة على النهوض بعمل ينفع الإسلام ، وإذا فقد أصبح الأمر محصوراً بين هذه القوى الثلاث : قوته هو بالنام ، وقوة الفرنج بالقدس ، وقوة الفواطم الشيعيين بمصر .

ثم نظر نور الدين في هذا الموقف السياسي الدقيق ، فإذا مصر كذلك من الضعف بحيث لا تقدر هي الأخرى على الثبات في ميدان النزاع حول هذه القضية الكبرى : وهي بقاء الفرنج في أرض إسلامية .

« وعلى هذا فالخصومة أصبحت في الواقع بيني وبين الصليب ونجاح أحدهما على الآخر مرهون بنجاحه في أمر واحد ، هو هنا الظفر بمصر . ! » .
هكذا حدث الرجل نفسه بعد أن أطال التفكير ، ثم أتت الحوادث التاريخية

كلها شاهدة على صدق هذا التفكير ، بل شاهدة على أنه كان ملهما في حديثه كأنما قد أوحى إليه به . ومن كنور الدين الشهيد في ذكائه ونفاذ بصره وصفاء بصيرته وبعد غوره في فهم الأمور ؟ إذا كان لابد من جلاء الصليبيين عن أرض المسلمين ، فمصر هي التي يجب أن تكون ثمنا للجلاء ، ومصر هي التي يجب أن تكون كبش الفداء ، ومصر هي التي لا مفر لها من أن تقع فريسة الأسد الإسلامي الجاثم لها بدمشق ، أو النمر الفرنجي الرابض لها بالقدس !

وإنهما ليرقان الحوادث الجارية هناك بعين كمين الذئب . وإنهما ليستبقان إلى التدخل في شئون مصر تدخلا يراد به الغنم ، وإذا بالحوادث المصرية تدعو الغريمين بسرعة عظيمة إلى هذا التدخل وتلج عليهم الحاحا عظيما فيه . ذلك أنه قتل بمصر وزير خطير فثار لمقتله فارسان كبيران يقترن اسماهما عادة بزوال الخلافة المصرية من البلاد ولا يذكران إلا وتذكر معهما الفتن السياسية التي أدت إلى انهيار هذه الخلافة .

هذان الفارسان الكبيران هما شاور وضرغام ، ظلا يتصاولان ، وكان من سوء حظ مصر يومئذ أن كلا منهما أخذ يستعين على خصمه مرة بنور الدين وأخرى بالصليبيين . وما أسرع ما غدت مصر ميداناً لهذين الغريمين المتوثبين . وكان الحرب سجالا بينهما إلى أن كتب النصر أخيراً للجانب الذي فيه رجل عرف بشهامته ورباطة جأشه هو أسد الدين شيركوه ومعه فتى لم يزل بعد في ميعة صباه وروثق شبابه ، هو « صلاح الدين » ثم عاد الرجلان الظافران إلى الشام ، وكانت أنباء النصر قد سبقتهما في كل مكان . وأحسب لو أن الأثير في وقتنا هذا تولى نقل الأخبار ما كانت لتصل إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بأسرع مما وصلت إليهم في ذلك الوقت :

فأما دمشق فقد طربت وأسكر أهلها الفوز وراح شعراؤها وأدباؤها

ينظمون الشعر الرائع والنثر الفائق في تهنئة الأبطال وكتابة البشائر الى الخليفة وغيره من أمراء الاسلام .

وأما « نور الدين » فقد أصبح وهو على يقين من أن مصر عما قريب ستصبح درة تلمع في التاج الأتابكي ومركزاً يملك به جميع ما للفرنج .

وأما أسد الدين فقد عاد وبه من الشوق لأخذ مصر ما يربو على كل رغبة في الفتح تحركت في صدره من قبل .

وأما الفتى « صلاح الدين » فقد صحب عمه إلى مصر ثم عاد منها وقد آلى على نفسه ألا يعود اليها مرة أخرى . وكيف يعود اليها وقد ذاق فيها من الجوع والعنت والمشقة ما أشرف به على الموت ، وذلك في الحصار الذي ضربه الصليبيون على الاسكندرية حين تركه عمه فيها وذهب هو لملاقاتهم بمدينة القاهرة .

وجلس هذا الفتى الحزين يقص على أبيه وأخوته في دمشق بعض ما كان يقاسيه في هذه المحنة التي كادت أن تودى به ، وأخوته من حوله يجحدون في كلامه نعمة اليأس فيشفقون على أخيهم ويوافقونه على رأيه الذي عزم عليه . كل ذلك والاب على مقربة منهم يبسم لابنه اليأس وفي ابتسامته معاني السخرية منه ومن السخط الذي يظهره ، وفيها معاني الرضا عن المحن التي لقيها والثقة بأنها تصهره ، ففي اعتقاد هذا الاب أن هذه المحن هي التي تدنى ولده رويداً رويداً من النضج الذي يحبه له .

ومرت فترة على هذه الحال وإذا الفرنج يغيرون على مصر من جهة بلبس ، وإذا هم يوقعون في قلوب المصريين في هذه المرة أشد ما مر بهم في تاريخهم من الجزع والاضطراب والخوف . وإذا وزيرهم وهو شاور قد أمر بنار عظيمة أضرمت في مدينة مصر (القسطاط) لتكون النار حائلاً بينه وبين الفرنج

القادمين عليه ، ثم لوح الوزير من وراء ناره بماله للفرنج يريد أن يطغى به جدوة هذه القسوة التي غمرت قلوب القوم . وأما أميرهم وهو الخليفة العاضد — فقد أخذ يبعث بالكتب تلو الكتب إلى بطل المسلمين بالشام ، كما أخذ يضع في الكتب خلاصا من شعور نسائه امعانا في الضراعة والاسترحام ، فاكثرت نورالدين ردأ على كل ذلك بأن بعث اليه بالقائد الذى كان على أحر من الجمر فى انتظار هذا الأمر .

ويأخذ « شيركوه » أهفته لهذا القصد ، ويحذر « صلاح الدين » أن يأتى اليه الأمر بمرافقته الى مصر ، ويجهد هذا الفتى فى الوصول إلى عذر يجوز على عمه وأخيراً لا يجد الفتى بداً من أن يصدع بأمر عمه هذا كارها متثاقلا ، كأنما يساق الى الموت .

ذلك بأنه ورد على ذهنه العناء والجهد اللذان ساقاهما بالاسكندرية فى حصار الفرنج ، ولم يرد على ذهنه المجد والظفر اللذان ينتظرانه بمصر . وفى ذلك يقول المؤرخون « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل ... ! »

ليتك إذ تذهب أيها الفتى مع عمك تعلم أنه لن يفعل شيئاً فى هذه المرة أكثر من أنه موصلك الى باب الجنة التى تنتظرك ؛ وأنك كما تدخلها وتقطفان من ثمارها ، أو يشركك عمك فى الثمرة الأولى وحدها ويترك لك بعدها التلذذ بما فى الجنة كلها من ثمرات .

والفتى غارق فى أفكاره وأوهامه اذ به يسمع من يقول : « غداً تأخذ سيفك ، وتلبس درعك ، وتتبع عمك ، وتعلو خلفه ظهر جواد » وبهذه الكلمات العذبة المرة ، باغت نجم الدين ابنه ، كأنما أراد أن يقول له : « لن تريح نفسك يا بنى وقد راد أن يتعبك أبوك .

وزارة

.. هذا الظفر يبدو عرائس من نور ترقص أمام القائد الكهل ، وهذا اليأس يتراءى أشباحا خفيفة مظلمة لعين الفتى الذى يتبع عمه عن قصد أو غير قصد ، وهذا جيش الشام تسير جنوده بخطى سريعة إلى مصر . غير أن الفرنج كانوا قد سبقوهم إليها لينزلوا آخر جهدهم فى التغلب عليها : فأما ظفروا بها وردوا جند الشام ، وأما ظفر بهم هؤلاء ، وأنقذوا مصر والإسلام .

ثم ما كاد الجديشان يلتحمان حتى ارتد الفرنج الى أعقابهم ، ونجت البلاد من أخطارهم ، ودخلها (الأسد) دخول الظافر المنتصر ، ونظر المصريون اليه على أنه رجل الساعة المنتظر . ثم يجلس الشيخ وابن أخيه لحظة يستريحان فى أثناءهما من القتال ، ولكنهما يتفقان فى هذه اللحظة أيضاً على قتل (شاور) ، ثم لا ينتظران إلا ريثما يعود الإذن بقتله من القصر ، فيتولى الفتى قتله بنفسه لتخلص البلاد منه .

أما الخليفة المصرى — فكان فى أثناء ذلك كله رهين قصره ، لا يكاد يظهر منه إلا بصيص عينيه ينظر بهما من خلال نافذته ، حتى انجلى الموقف عن كثرة الفرنج ونصرة الكرد وموت الوزير المصرى الذى جر على بلاده من أجل أطاعه كل هذا الويل . وإذ ذاك لا يرى الخليفة بدا من أن يتقدم بخلع الوزارة إلى شيركوه ، وما أسرع ما يقبلها منه شيركوه ، ثم ما أسرع ما تذايع أنباء الوزارة الكردية فى دمشق وغيرها من مدن الشرق ، ثم ما أجمل ما يبتسم الدهر للأتابكة يومئذ عن هذا الأمل الحلو : وهو زوال الخلافة الشيعية من مصر ثم امتلاكها وطرده الصليبيين نهائياً من القدس !

كذا فلتشرق أيتها الآمال العذبة في بلاط نور الدين ، وكذا فلتنديقيه حلاو
الظفر الذى طالما تمناه لنفسه ولدينه ولمذهبه منذ بعيد ، وكذا فليكن النصر
نصيب الذين وهبوا أرواحهم وأموالهم لعقائدهم وأفكارهم ، بعد أن آمنوا بها ،
وحملوا غيرهم على قبولها والعمل لها ، ونسوا من أجلها كل مايلقونه من أذى
وعذاب !..

عن هذه المعانى المتقدمة كلها أخذت تفصح الكتب التى حملها البريد الشامى
إلى مصر ، وفيها تهته الشعر والكتابة لاسد الدين بالوزارة ، بل فيها أغراء
الشعر والكتابة له بأمور خطيرة . وهذا شاعر لنور الدين — وهو هنا عماد الدين
الاصفهانى — يبعث إلى شريكه بقصيدة عظيمة ، ظهر أنه كان يتعجل فيها
الحوادث ويسبقها ، كما ظهر أنه كان يحرض فيها (الاسد) على اغتيال الخلافة
المصرية فى مأمنها . فانظر اليه قد ختم قصيدته هذه فقال :

رد الخلافة عباسية ودع الـ ادعى فيها يصادفا شر منقلب
لا تقطعن ذنب الافرعى وترسلها فالحزم عندى قطع الرأس والذنب !!
صبرك أيها الشاعر العجل — لاتزعجن بأبياتك هذه مريضاً نام على سرير
ليعانى آلام المرض الذى يصيبه ، ويقاسى ضعفاً كاد يودى به وبأصحابه ، وارفق
أيها الشاعر به وبهم ، فان لله فيهم علم غيب هم صائرون اليه !

* * *

وجلس الوزير الكردي فى الدست ، وبعث الى القصر فى طلب كاتب يكتب
له ، فبعثوا اليه برجل ضئيل الجسم ، كله رأس وقلب ، قصد الوزير الى اختياره ،
فجلس الرجل الى جانبه ليكتب له ما أراده ، وهو يملئ على اثنين معه ، وشفتاه
تمثلان الوانا مختلفتين من الحركات ، لقوة حرصه فى اخراج الكلام كأنه كان يملئ

بكل جسمه وعقله ودمه . هذا الرجل هو القاضي الفاضل . وكان الفاضل هذا مزاحماً لكتاب القصر ، وذلك منذ التحق به على يد رجل من أولاد شاور من قبل . فثقل أمره على كتبة الديوان ، وانتظروا حتى طلب شيركوه كاتباً فأرسلوه اليه ، وظن رؤساء الديوان اذ ذاك أن أمر الكرد في مصر لن يتم ، وأن وزيرهم هذا سيقتل كما قتل الذين سبقوه من قبل . فبعثوا اليه بالفاضل وقالوا : لعله يقتل منه فنخلص من مزاحمته إلى الابد . . . !

وحين أتى الفاضل توسم فيه شيركوه الوزير قدرة على تصريف الامور ، ونشأت بين الرجلين صداقة ارتاحا اليها ارتياحاً عظيماً . وربما كان من أسباب الارتياح اتفاقهما كذلك في المذهب الديني ، فهما رجلان سنيان يعملان في حكومة شيعية غزت البلاد المصرية بتشجيعها منذ أجيال .

وأخذ الرجلان يفكران سوياً في رأس الخلافة الشيعية — كيف السبيل الى قطعها بعد قطع ذنبها ، بل أخذوا يفكران جدياً في البلاد المصرية نفسها كيف تقابل العمل الذي يقدمان عليه وهو القضاء على هذه الخلافة وإزالة أمرها . كل ذلك والفتى صلاح الدين الى جانبيهما لا يشغل باله كثيراً بأمرهما الى هذا الحد . لانه منصرف كعادته الى اللهو والى الكأس . وكان له أن يمضى في لهوه وكأسه لولا أن الاجل لم يمهله عمه لاداء العمل الذي أهمه ، فلم تدم وزارته أكثر من شهرين وأياما حتى مات . وواجه الجيش بموته محنة كادت تعصف به وتزعزع الثقة منه لولا حزم نفر من فقهاء المسلمين ممن صحبوا جيش أسد الدين على عادة الجيوش الاسلامية في وقت خضوع الناس فيه لتيارات دينية كان لها الاثر كل الاثر في توجيه سياسة العالم كله في الشرق والغرب معا . فما كاد الشاميون ينفضون أيديهم من تراب هذا القائد الكبير ، حتى وقع الخلف بينهم فيمن منهم يكون الوزير ، أو فيمن منهم يكون من القوة والمنعة وكثرة الاعوان والاجناد بحيث يملك هذا الموقف الذي اصطدموا به :

فاما أحدهم — وهو الياروقى — من أمراء الجيش فقد كان رجلاً قوى
البأس عنيد الرأى ، فسعى حتى جمع إليه جنده وأقنعهم اقناعاً تاماً بأنه أولى من
غيره بأن يلى هذا الامر .

وأما الآخر — شهاب الدين الحارمى — وهو خال صلاح الدين — فقد
ذهب يمينى نفسه بالوزارة وينظر الى ابن اخته نظرات فيها الامل والرجاء ،
وفيهما الكبر والاستعلاء ، كأنما يريد أن يلفته الى أنه الاحق بهذه المكانة ، فلا
ينبغى أن تتطلع اليها نفسه وفى القوم من هو أولى بها منه . وأما قطب الدين
بن تليل — فقد كان أقل الثلاثة حرصاً على الوزارة ، وإن كان ذلك لم يمنعه من
أن يبذل فى الحصول عليها كل حذق ومهارة . وكاد الامر أن يتم لاولهم لولا سعى
رجل من الفقهاء كان صديقاً لصلاح الدين وكان عظيم التأثير فى نفوس الشآميين ؛
وكانت له مكانة عظيمة بينهم منذ التحق بهم وأخذ معه اخوته ، ليحاربوا فى
الجيش بسبب وفهم ويحارب هو معهم برأيه وسياسته ، هذا الرجل هو الفقيه عيسى
الهكارى .

فاسع أيها الفقيه لدى الامراء ، واخل بكل أمير منهم على حدثه ، وكله
بكلام ينفذ الى قلبه لا تكلم به غيره ، وليرضوا جميعاً عن صلاح الدين — لا يشذ
عنهم غير الياروقى الذى لم ينفذ فيه سحرك يا عيسى فهو يقول لك — والغيظ
يأكل قلبه ويؤذى جسمه . أنا لا أخدم هذا أبداً : ثم يترك مصر ليلحق بخدمة
مولاه نور الدين بدمشق .

ومع ذلك فكان الذى حمل الخليفة المصرى على قبول صلاح الدين هو قلة
من معه من جند الشآميين ، وذلك بالقياس الى الجند الذين كانوا مع غيره من
أمراء الجيش . وقد كان من نظام الجيش يومئذ أن يتألف من فرق شتى من
الجنود كل فرقة منها إلى أمير من الامراء ، ففرقة يرأسها الياروقى اسمها الياروقية ،

وأخرى يرأسها الحارمى واسمها الحارمية، وثالثة يرأسها صلاح الدين اسمها
الصلاحية وهكذا ...

* * *

وأخيراً عرضت الوزارة على صلاح الدين، وخرج بخلعتها فى موكب رائع
شاهده المصريون، وتحدث الوزير الشاب عن شعوره إذ ذاك فقال: إن نفسه
ضعفت عن مقامها أول الامر، ثم أخذ يملك نفسه تدريجاً فيما بعد، حتى جاء
وقت شعر فيه بعظم مركزه، وأحس خطورة التبعية الملقاة على عاتقه، فترك
الخمر، وتاب عن أسباب اللهو، وبدأ للناس خلقاً آخر، وجلس إلى اخوانه
يوماً ما فأصابته رعدة كردة المحموم، ثم انتفض انتفاض العصفور، وتعرض
الرجل لشيء يشبه الارهاص، وأخذ يتمم بهذه الكلمات:

« لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك
فى نفسى » !!

ومنذ ذلك الحين وهو مغرق فى التفكير فى أمور ثقيلة تركه عمه لأدائها،
وترك له رجلاً هو خير من يعينه على القيام بها، هذا الرجل هو عبد الرحيم بن
على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل. والحق لقد كان الفاضل من نعم الله على
صلاح الدين، وكان هذا بسببه موفقاً فى كل ما دبره من الخطط لتأسيس ملكه
وصيانة نفسه من أخطار كثيرة مخيفة أخذت تحرق به.

مؤامرة

سمع الفرنج أبناء الوزارة الاسدية فاغتazonا لسماعها ، وأيقنوا الهلكة ما لم يأتوا الى مصر لارجاعها فزولوا ثغر دمياط ، وضيقوا عليه الخناق ، وكادوا يأخذونه ، لولا صبر أظهره صلاح الدين في قتالهم ، ولولا أن مولاه نور الدين ذهب بنفسه الى حصون الفرنج ليشغل بالهم ، فرجعوا خائفين ، ونصر الله المسلمين وفرح بذلك الخليفة الناصر نفسه .

وفي اليوم التالي دخل صلاح الدين يوماً على الخليفة الفاطمي فأكرمه وقربه وأهداه كثيراً من التحف ثم اتصل الحديث بينهما مدة قال فيها الخليفة للوزير : أخبرني أيها الملك الناصر عن نور الدين — كيف يحب الجهاد من أجل دينه ؟ قال صلاح الدين : والله يا مولاي إنه لا أستاذنا الذي منه تعلمنا وبه تشبهنا ، وهو منا بمكان الولد لنا ؛ تؤثره بحبنا ونقدمه على أنفسنا ، لأنه كثير الاهتمام بأمر المسلمين ، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرى عليه جزء من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الحديث النبوي مسلسلًا بالتبسم ، فطلب منه بعض من قرأوا له الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فنضب من ذلك وقال : إني لا أستحي من الله تعالى أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج !

قال : العاضد أي خليفة في جلد الرجل ؟ هكذا والله ينبغي أن تكون أخلاق الملك والخلافة ! قال الوزير صلاح الدين : وضائق ذات مرة يد هذا الأمير وعجز بيت ماله عن أداء بعض ما لجندة من العطاء ؛ فتمال له أصحابه : يا مولانا إن في بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للعقهاء والفقهاء والقراء والصوفية

فلو استعنت الآن بها لكان أمثل ، فغضب نور الدين وقال لأصحابه : والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطيء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا اذا رآني بسهام قد تخطيء وتصيب ، ثم ان هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه اليهم فكيف أعطيه غيرهم ؟ « فسكتوا . قال العاضد « نعت أيها الرجل الى نفسى . يحدث هذا كله في بلاده ، ووزرائى لا هم لهم الا جمع المال والتنازع فيما بينهم على الملك والسلطان ! » . قال صلاح الدين « يحفظ الله مولاي وبقية سوء العاقبة » !

ثم انه خرج من عند الخليفة فلقى بالباب صديقه ومشيريه القاضى الفاضل فأخبره بأن شمس الدولة — وهو أخ لصلاح الدين كان أكبر منه سناً — قدم من قبل مولاه نور الدين ليلبغه تحيته وتحيمة أبيه نجم الدين ويقول له أنهما يطلبان اليه العمل لقطع الخطبة الفاطمية .

وجلس ثلاثتهم يتشاورون في هذا الأمر الذى أتاهم من قبل نور الدين فقال الفاضل لصلاح الدين :

« لا يحسن مولاي أن الأفعى قد ماتت فوالله انى لأجد لها سموماً ، كما أجد في الجوعى سموماً ، وللقوم آثار نعمة عظيمة غرست في قلوب أهل مصر محبة لن تزول . »

قال صلاح الدين « والذى نفسى ونفس محمد بيده ، لقد صدق القاضى الفاضل فما رأيت أكرم من العاضد ، وأشهد لقد غمرنا بفضلته ، وأغدق علينا من نعمه ولولا الغاية التى تراد منا ، لكننا له من أخلص خلصائه ، وأشد أعوانه وأنصاره ، وحمينا له هذا الملك . »

قال شمس الدولة : « فاننا سمعنا أن أهل مصر رحبوا بكم ، ويسروا هذا الأمر لكم ، حتى زعمنا لا نفسنا بدمشق أنكم لن تجدوا مشقة فى قطع الخطبة

بل زعمنا لأنفسنا بدمشق أن أهل مصر أنفسهم لم يعودوا راغبين في هذا المذهب
الذي فرضه عليهم القوم .

قال الفاضل : لا يغرن الأمير ذلك ، فإن أهل مصر كغيرهم من سكان كل صقع
وقطر ، يقبلون اليد التي لا يستطيعون بترها حتى تمكنهم الفرصة من بترها .
ثم إن الناس في كل زمان ومكان عبيد المال وعبيد الإحسان . وإني لأرى في
القصر حركة ، وأسمع للقوم همساً ، وإذا قامت العاصفة يا سيدي فما عسى أن
تصنع ؟ وإذا وقع الساج في الماء فكم عسى أن يسبح ؟ وإنكم الآن في أدنى
حظكم فاطلبوا أقصاه ! .

قال صلاح الدين : « والله ما نملك البلاد بسيوفنا ولا برماحننا ، ولكن
برأى القاضي الفاضل . »

قال شمس الدولة « ما أذكى الرجل وأصدق نظره وأبعد غوره ؟ ولولا
الثقة بفضيلة رأيه ما جشمناه ما جشمناه . »

* * *

والحق أنه لم يكن يسيراً على صلاح الدين ، أن يزيل من قلوب أهل مصر
محبة الفاطميين ، فقد تمكن هؤلاء الفاطميون من إكرام أهل مصر في وقت لم
تستطع فيه الخلافة العباسية في العراق ، ولا المملكة الأتابكية في الشام مجارة
الخلافة الفاطمية في هذا الميدان . من أجل ذلك كان يفر إلى (مدينة المعز)
كثيرون من الشعراء والعلماء والفضلاء الذين لم يتيسر لهم الرزق في (مدينة
المنصور) . وكان من الذين فروا إلى مصر يومئذ عالم شاعر ذهب يقول :

سلام على بغداد من كل منزل	وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقها عن قلبي لها	وإني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها	ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وأما الشام فلم يكن أسعد حالا من العراق . وحسبك أن ترى شاعراً وصف فيه عهد نور الدين بقوله :

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش !!
وحقيقة كان الجوع والعطف بالشام والعراق لا يعدلها غير الشبوع والرى
بمصر ، واقرن ذلك فيها بحكم الفاطميين ، ومن أجله كثر فيها أصدقاؤهم وخلصاؤهم
لما نالوه في الواقع من مالم وعطائهم . وكان من سياسة هذه الدولة ، أنها
لا تفرق في عطائها بين شيخي وسني ، حتى لقد وصف كرمها شاعر ليس من
مذهبها الديني فقال :

مذاهبهم في الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

* * *

غير أن العناية الإلهية التي واثت صلاح الدين كتبت له التغلب على أنصار
الفاطميين ممن أضمروا لهم وداً ، عاهدوا أنفسهم من أجله ، على أن يتواصوا
فيما بينهم ، ويجمعوا شتاتهم ، ويقوموا بمؤامرات خطيرة تزجج هذا الذي باتوا
يشعرون أنه يريد أن يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسي . ووقع بعض هذه
المؤامرات في حياة العاضد ووقع بعضها بعد وفاته ، فأما ما كان منها في حياته ،
فمؤامرة قام على تدبيرها عبد خصى كان يتحكم في قصر الخليفة ، وكان يقال له
(مؤتمن الخلافة) ؛ أجمع هو ومن معه على مكاتبة الفرنج ، وانفقوا فيما بينهم
على القبض على الأسدية والصلاحية من فرق الجيش الشامي ، حتى إذا خرج
الوزير بمن معه للاقابلة الفرنج على الحدود أخذوا من بقي في القاهرة من جنده
وأثروا الوزير من خلفه ، وطعنوا جيشه طعنة ربما قضت عليه .

وتمت مكاتبة المؤتمن للفرنج على هذا النحو ، ثم شامت الأقدار المسعفة في
ذلك الوقت ، أن يأتي رجل من التركان يظهر أنه كان من جواسيس الوزير —

فيعبر البئر البيضاء ، ويرى هناك إنساناً عليه ثياب بالية ، ويده نعلان جديان ليس بهما أثر مشى ، فينكرهما الجاسوس ويحجى بهما وبالرجل إلى صلاح الدين فيفتقهما ويجد فيهما مكاتبة للفرنج من أهل القصر . ويأخذ الوزير الكتاب ويسأل أن يدلوه على كاتب هذا الخط ، فيدلوه على يهودى من الرهط ، أحضره الجنيد ليسألوه ، فنطق اليهودى بالشهادة قبل كلامه وأعلن بذلك إسلامه ، ثم أدلى باعتراقاته وبأن الذى حمله على ذلك هو مؤتمن الخلافة . وهنا يلتفت الملك الناصر إلى القاضى الفاضل ويقول له : « ما أسرع ، ما صدق ظنك يا عبد الرحيم فم تشير علينا فى هذا » ؟ فيقول الفاضل « أما الرجل اليهودى يا مولاي فاعف عنه واقبل إسلامه منه ، وأما المؤامرة فاحفظ سرها ، فهو آمن لك ، وأما العبد الخصى الأسود فلا تظهر أنك تعرف من أمره شيئاً حتى تستعد له » .

ففعل الوزير ذلك وأخفى سر المؤامرة ومضى (المؤتمن) فى تدبيرها حتى كان يوم خرج فيه إلى قصر من قصوره وخلا فيه الذته ، فأنهض إليه الوزير من ساعتها من جاءه برقبته ، وثار السودان لمقتله ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وإذا قاموا على وزير قتلوه واستباحوه ، فثار أصحاب صلاح الدين ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، فما وجد السودان إلى الخلاص سبيلاً ، وأينما تقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً . وكان الذى حمل عليهم هذه الحملة الشعواء هو (شمس الدولة بن أيوب) ، فأبلى فى الموقعة البلاء الحسن ، واتفق له فيها حادث عجب ، وهو أن العاضد نفسه كان يراقب الموقعة من منظره التلوى ، فأمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ، ففعلوا ، فأمر شمس الدولة جنده بإحراق منظره العاضد ففعلوا أن يفعلوا ، لولا أن رأوا باب المنظره قد فتح فجأة وخرج منه الخليفة نفسه وأمر من نادى وقال « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم العميد الكلاب أخرجوهم من بلادكم . . . ! » . وكانت السودان مشتدة الأنفس بالعاضد ، لعلمهم أنها إنما يدافعون عنه ، وأنه راض عن هذه

المدافعة . فلما سمعوا ذلك منه فت في عضدهم وتخاذلوا يومئذ وولوا
الأدبار .

وكان من خطة (المؤتمن) — كما كان من خطة غيره من أصحاب الفتن —
أن يستعينوا بالفرنجة ينفرون اليهم خفافاً قليل قيامهم بالثورة على صلاح الدين
ولكن كان من توفيق الله لهذا الوزير العظيم أن يتمكن دائماً من كشف المؤامرة
قبل نضوجها ، وحصر الناس في منطقة ضيقة عند نشوبها ، وأن يكون وقودها
دائماً أصحاب هذه الفتن والثورات ، يصطلون بلظاها ، ثم لا يصيب الوزير نفسه
شيء من أذاها ؛ وكان من توفيق الله لصلاح الدين أن من الله عليه بحليفه ومولاه
بور الدين ؛ ينقض انقضاض الأسد على حصون الصليبيين فيصرفهم بذلك عن
قصد مصر لمساعدة الثائرين .

حدث هذا كله في ثورة المؤتمن ؛ ثم حدث هذا كله في الثورات التي أعقبت
ثورة المؤتمن ؛ فكان الفرنجة يأتون لمساعدة الثائرين من الساحل وصقلية ؛ وكان
الفرنجة يبدأون عادة بحصار دمياط ؛ فيستجد صلاح الدين بمولاه ليشغل بالهم
بالشام ؛ فما يكاد هذا يتحرك الى بلادهم ويلقى الذعر في قلوب رعاياهم حتى يعودوا
سراعا ويتركوا الثائرين لسيف صلاح الدين يحصدهم ويفنيهم ويقفل كل أمل في
تدارك الدولة القديمة .

بذلك حبطت هذه المؤامرة التي دبرها السودان ، وعاد الملك الناصر بعدها
الى نفسه يوطنها على تحمل هذا الأذى الذي بات ينتظره من أعوان الدولة
الفاطمية ؛ وصديقه القاضي الفاضل الى جانبه دائماً يقوى قلبه ويشد أزره ؛
ويعينه على أمره ؛ ويجود برأيه ، ويفتح عينيه لكل حركة تحدث في القصر وخارج
القصر حتى جاء يوم أتى فيه شاعر من شعراء الفاطميين قال ان معه قصيدة يمدح
بها الوزير ؛ فأشار الفاضل عليه بالاعتذار عن سماعها وكان من قيل يستمع من
هذا الشاعر إلى أمثالها .

وكان هذا الشاعر الأريب متصلا بشمس الدولة بن أيوب يمدحه ويستمنحه
وفي نفسه حب للدولة القديمة لا ينكره ؛ بل من أجله رأى أن يتصل بشمس
الدولة إذ ذاك كما يظفر لنفسه بغاية كالغاية التي سعت بالمؤمنين إلى حتفه .
وكان القائد الأيوبي عن ذلك كله غافلا ؛ وبقى أخوه الوزير بهذا كله جاهلا ،
فنامت أعينهما عنه ولكن لم تتم عينا القاضي الفاضل ؛ فما زال يهذي الشاعر حتى
كشف عنه بفضنته وحذر الوزير من مكيدته . وذلك ما نحدثك عنه في
الفصل الآتي :

سلطان

حد

أيها الغائبون عني وإن كنتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندي عيانا

منذ غاب صلاح الدين عن أهله وإخوته في دمشق ، وهو لا يفتأ يذكرهم
ويجد في نفسه حنيناً إليهم ، وشوقاً إلى رؤيتهم ، وكان الأحداث التي مرت به
وكان الظفر الذي جرى على يديه ، وكان الحرب الطاحنة التي نجا من شرها ،
ولم يزل بعد مهتداً بغيرها ، كأن هذه الأمور كلها لم تنسه دمشق والشام ، ولا
صرقته عن التفكير في الأهل والإخوان ، فبعث إليهم يستوحشهم بطائفة كثيرة
من الكتب التي دلت على لطف حسه ، ورقة قلبه وسعة نفسه من هذه الناحية .
وكان في أكثر هذه الكتب التي كتبها يستعين بالشرع ، فأسعفه الشرع بكل
ما كان يريد .

وفي أحد هذه الكتب — بعث صلاح الدين إلى مولاه نور الدين يطلب
إليه في رفق ولين أن يرسل إليه أباه وإخوته ، يشد أزر نفسه بهم ويعتمد في
أمره عليهم ، فلعل الأحداث أن تتغير ، ولعل الأفعى التي ضربت على رأسها منذ
حين أن تقيق من سكرتها ، وتنفث السم حولها فتقتل به كل من أرادها بسوء .
وأنت هذه الكتب كذلك نجم الدين ، وكان هذا الشيخ حزينا على موت
أخيه ، أو حزينا على الظرف مات فيه أخوه فقد مات بمصر أخوه في وقت لم يكن
فيه صلاح الدين يتجاوز الثلاثين من العمر ، فهو لا يستطيع النهوض وحده
بأمر هذه المهمة الشاقة التي بات ينتظرها منه التاج الأتابكي .
مولاي . . إن ابن وحيد بالديار المصرية — وهو فيها بين خطرين كبيرين .

خطر الشيعة الذين يبعضونه أشد البغض ، وخطر الفرنج الذين أقاموا ببلادهم
رثيما يجمعون شتاتهم ويعودون لإخراجه من مصر . بهذا الحديث الهادئ
الرزين ، ابتدر الشيخ مولاه نور الدين ، وكأما كان هذا يفكر في نفس
الفكرة التي أفصح عنها الشيخ ، فلم يدعه يتم كلامه حتى قال له : « أجل يا نجم الدين
لقد كنت الساعة أفكر في استدعائك للسفر إلى مصر ، فعندي أنه قد حان الوقت
الذي تخطو فيه الخطوة الحاسمة لقطع الخطبة العلوية لتجل مكانها الخطبة العباسية »
ثم سكت الأمير قليلا ومضى بعد برهة يقول :

« ولقد أتاني يا نجم الدين أن ابنك صلاح الدين أبي في أول أمره أن يلي
الوزارة بعد عمه ثم قبلها على تهيب لها ، وأنها سلمت له بعد سعي من صديقه
الفقيه عيسى الهكاري ، فياله من فقيه ماهر ، جمع قلوب الجند على صلاح الدين
وأرضى عنه نفوس الطامعين المنافسين ، وراح يشير عليه كذلك بأن يتفق
كل ما جمعه عمه من المال في استرضاء الجند والرعية ، حتى مال إليه الجند
وأحبه الرعية . . أما العاضد نمسه فقد بلغني أنه أصبح ضعيفا قليل الجند ، بل
لم يبق معه أحد من العساكر المصرية بعد ، فذلك يا نجم الدين ما جعلني على يقين
من أن الفرصة قد واثت لقطع الخطبة ، وإن كنت عجبت من ولدك منذ مدة
لأنني بعثت إليه بأمرى هذا ، فاعتذر إلى بالخوف من أهل مصر لميلهم إلى
صاحب القصر » .

قال نجم الدين « والذي نمس محمد بيده يا مولاي إنك لتقول الحق ، وإنني
لأرى الثمرة أينعت وحن قطافها ، وإن ابني لهيابة مسرف في الحذر ، وإنني
لمأذه إلى شيء من الجرأة التي تتطلبها موقفه » .

وأتى الشيخ مصر ؛ وأخذ يناقش ابنه الرأي ، فتبين له أن ابنه على حق فيما
أظهره من الخوف ، وكان القاضي الفاضل حاضرا هذا الحديث فقال لنجم الدين

« والفاطميون يا سيدى لهم أنصار كثيرون ، عرفوا ما ننويه فباتوا يأخذون للأمر عدته . وأخذت كل جماعة منهم تحوك شباكها ، وتنظم نفسها ، وتعد رجالها ، وكلما ازداد أمرنا قوة ازداد المصريون من جانبهم حيلة ، فالرأى عندى يامولاي أن أمورنا تؤخذ بالهوينى وإلا فسدت وضاعت ثمرتها ؟ عند ذاك انتهى خطاب الفاضل لنجم الدين فأقرة هذا على رأيه وراح يقنع به نورالدين ولكن نور الدين لم يزدد الرغبة وإلحاحاً واستمسكا بالرأى الذى أمر به وفى لهجة حازمة لا تسمح بالرد قال لصاحبه : « ارجع الى مصر ثانية لتقطع الخطبة ، ولتأخذ القوم على غرة ، وذلك قبل أن تقوى شوكتهم ، وتدنو خطتهم من النضج الذى يمكنهم من الفوز » وأطرق الرجل قليلا ، ثم رفع رأسه وتابع قوله فى هدير كأنه هدير الجمل فقال : « كأننى بصلاح الدين ، وقد طاب له الحكم ، وأخذ بأبهة الملك ، ورضى لنفسه أن يظل وزيراً سنياً خليفة شيعى !! فاذهب اليه الآن أيها الرجل لتقول له : إننا لم نجعلك على جيوشنا ، ونزودك بسيفونا ، لتصل بها الى مركز خطير تنسى به مصالح المسلمين ، وقد باتت مصالحهم فى أن تزول خلافة المصريين وفى أن تصبح مصر ملكاً لنور الدين وفى أن يستعين بها المسلمون على امتلاك بيت المقدس ! » .

وعبثاً حاول الشيخ أن يهدى من ثورة الأمير ، وعبثاً حاول أن يقنعه بأنه قد أبعد فى الظن وأسرف فى التقدير ، وعبثاً حاول أن يستأذنه فى تأخير عودته شهراً أو بعض شهر ، وأخيراً وافق مولاه على أن يأخذ أهفته للعودة الى مصر .

واستقر الشيخ بها ووجد ابنه يراقب أمورها ويفكر فى خير الطرق التى يصل بها الى تنفيذ سياسة نور الدين مسترشداً فى كل ذلك برأى صديقه القاضى الفاضل ، وقد أشار عليه هذا برأى يمتحن به شعور المصريين ، ويعرف به مبلغ استعدادهم لقبول نظام جديد ، فقال له : « ليأذن لى المولى بأن أشير عليه برأى

فيما نحن فيه » قال : قل يا عبد الرحيم فأنا والله الى رأيك أنت أحوج مني الى سبقي هذا » فقال : « أشير على المولى بأن يبدأ بهذا العمل ؛ وهو أن يبطل من أذان الشيعة — حتى على خير العمل — وهى كلمة أضافوها الى أذانهم تمييزاً لهم عن أهل السنة من أعدائهم فى المذهب الدينى . فان فعل المولى وأنكر الناس عليه ذلك عرف أن الوقت لم يحن بعد ، واذا لم ينكروا عليه ذلك علم أن الفرصة قد واثته . »

وعمل الوزير بهذا رأى فلم يجد الرعية ثارت عليه ؛ ولا وجد القوم صاحوا به ؛ فنتجعه ذلك على أن يأتى أعمالاً أخرى أشار بها الفاضل أيضاً :

فمرة يأمر بالقبض على جميع اقطاع العاضد بالبلاد ، ومرة يأمر بالقبض على جند العاضد من السودان ؛ ومرة يأمر بالقبض على جميع جنوده من الأرمن كل ذلك والرعية لا تنتقده ، وكبار العاويين فى مصر لا يظهر فيهم من يعارضه إذ ذاك فقط علم الرجل أنه يستطيع قطع الخطبة وهو آمن على نفسه بعض الشيء . وجلس صلاح الدين وأبوه عن يمينه والفاضل عن يساره وفكر الثلاثة فى خطة سليمة العواقب ، أخذوا يحسبون فيها حساباً دقيقاً لاحتمالاتها المختلفة ؛ وأخيراً استقر رأيهم على ألا يشترك فى الأمر صلاح الدين بنفسه ، بل يقوم به نجم الدين ومعه جماعة من أمراء جنده ووجوه قومه ، فلينزّلوا للصلاة بالجامع الكبير ، وليأت الإمام الذى يخطب يوم الجمعة فليخطب خطبته الأولى فى معنى من معانى الدين ، ثم ليهمل فى خطبته الثانية ذكر العاضد الفاطمى فينظر وقع ذلك فى نفوس السامعين ، فاذا ثاروا فليتدخل نجم الدين ، وإذا لم يثوروا ففي الجمعة الثانية يضع الخطيب مكان الخليفة العلوى اسم الخليفة العباسى . وأما الغرض من تغيب صلاح الدين فانه إذا فسد الأمر وثار المصلون فسيعذر هو للعاضد بأنه لم يكن حاضراً ، وبأنه ليس عن عمل أبيه راضياً ، وبأنه يستطيع أن يأمر أباه بمغادرة الديار المصرية والعودة إلى دمشق .

ثم إن الظروف كلها واتت صلاح الدين وأشار عليه الفاضل بامام جرى من أئمة المسلمين هو الشيخ الخبوشاني ، فعهدوا اليه بوضع الخطبة وانتهوا بذلك من وضع الخطبة ، وانتظروا تنفيذها على هذا الوجه .

وأتى اليوم المشهود ، ولاحظ أهل مصر حركة بالجامع الكبير ، وانتظروا وقوع حادث خطير ، وتهايت نفوسهم لمعرفة ، حتى صعد الإمام المنبر وألقى الخطبة الأولى ، ثم نهض لخطبته الثانية وحين وصل إلى ذكر العاضد لم يذكره ؛ ولكنه دعا الأئمة المهديين والسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل والناس سكوت من الذعر كأن على رؤوسهم الطير ، قد راعهم منظر الجند الذين غص بهم الجامع الكبير وأحاطوا بالمنبر يومئذ احاطة تنذرهم بأن منبرهم إنما ينطق اليوم بكلمة السيف ! !

وسمع العاضد قبل موته بقطع الخطبة فاعتم لذلك ؛ وقام يدخل الى حجرته فمن قائل انه قتل نفسه ، ومن قائل انه امتص فص خاتمه وكان تحته السم فأت به ومن قائل انه عثر وسقط سقطه أقام بعدها متعللاً خمسة ثم مات . واتصل موته بالملك الناصر صلاح الدين فشق ذلك على نفسه وقال في لهجة النادم على عمله « لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة » . فقال القاضي الفاضل للسلطان « لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت » !

وهكذا تم وأد الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين ؛ والعجيب أنه قام على قبرها يومئذ يبكي بكاء الحزين ، ومن يدري لعل نفسه كانت متألمة حقاً لهذا المصراع الذي تم على يديه ؟

ولكن ما ذنب الرجل في ذلك — وهذه الخلافة النكداء كانت من المرض والإعياء بحيث لا تصلح للبقاء . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من

تشاء ، وتنزع الملك من تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك
على كل شيء قدير . .

وما كادت الخطبة نفسها تتم للعباسيين ، حتى أمر السلطان وزيره القاضي
الفاضل فكتب بها بشارة الى مولاه نور الدين ، فأمر هذا كاتبه العاد الاصفهاني
فأنشأ بها بشارتين : احدهما عامة تقرأ في جميع البلاد الاسلامية ، والاخرى
خاصة يذهب بها القاضي شرف الدين بن أبي عصرون إلى عاهل الخلافة العباسية .
وكان يوما مشهوداً ، ذلك اليوم الذي ذهب فيه القاضي بالبشارة الى الخليفة
العباسي . فهناك ازدحم القصر العباسي بوفود المهتمين ، وهناك ارتفع صوت
الشعر محتلطا بأصوات الخطباء والوعاظ والصالحين ؛ وهناك مدت موائد
الطعام ليصيب منها الناس على اختلاف طبقاتهم ؛ ويعيدوا بها الى الأذهان
ذكرى خلفائهم ؛ وانها لتتهنئات على بطل المسلمين بالشام وعلى صلاح الدين
بمصر وشهد الشعب الإسلامي في الشرق أيام أعياد عظيمة قدم العهد بها ؛ ثم أتت
ولها هزة فرح في قلوب أصحابها ؛ ولو تمثلت السنة اذ ذاك رجلا لراه الناس بطلا
لا يبطره الظفر ولا يزججه الخطر ولكن يقف يقول :

وقالت لي الأيام ان كنت لاحقا

بأبناء أيوب فأنت الموفق ! !

همو رفعوا رأسي وقاموا بدعوتي

جهارا وطرف الرفض^(١) خزيان مطرق

(١) الرفض هو التشع

شاعر

ذلك الشاعر الذى قدم يوماً على صلاح الدين يريد أن يمدحه فصدده عنه وزيره القاضى الفاضل هو (عمارة اليمنى) ، وإنى محدثك عنه لأمرين : أولهما — وهو سبب ثانوى — أن حياة هذا الشاعر العربى تصور فترة الانتقال من العهد الفاطمى إلى العهد الأيوبى .

وثانيهما — وهو سبب قوى — أن اسم عمارة اليمنى يقترن بمحنة أخرى من المحن التى تعرض لها صلاح الدين وكانت أشد على نفسه من محنة (المؤمن) السابقة الذكر . وعمارَة هذا شاعر أريب ثار به أهل زبيد ، وهى من أكبر مدن اليمن ، فخرج منها إلى مكة هاجالاً حاجاً ، واستطاع بذكائه أن يتصل بإمام الحرمين فبعث به هذا سفيراً من لدنه إلى الخليفة الفائز بمصر ، ووزيره يومئذ الملك الصالح طلائع بن رزيك . فلما حضر للسلام عليهما بقاعة الذهب أنشدتهما أولى قصائده وهى قوله :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولت من النعم
قربن بعد مزار العز من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أمم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته	ماسرت من حرم إلا إلى حرم !
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين التقيضين : من عفو ومن تقم
وللامامة أنوار مقدسة	تجلو البغيضين : من ظلم ومن ظلم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً	فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدننا وأهلهما	وزيره الصالح الفراج للغمم

اللابس الفخر لم تنسج غلائله إلا يد الصانعين : السيف والقلم

قال عمارة اليني : « وعهدى بالصالح وهو يسعيدها في النشيد مراراً ،
والاساتذة والامراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ودفع لي
الصالح خمسمائة دينار ، واذا بعض الاساتذة قد أخرج لي من عند السيدة الشريفة
بنت الامام الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال الى منزلي ، وأطلقت لي
من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي ، وتهادتي الامراء الى منازلهم للولائم
الخ ، ومنذ ذلك اليوم ومدائح الشاعر تتوالى ويضرب فيها الشاعر على نغم فاطمي ،
ويعبر عن معان شيعية لا يقدرها حق قدرها الا من درس الادب الفاطمي
والعقل الشيعي .

ثم مات ابن رزيك فرثاة الشاعر أجمل رثاء وأصدق ، وأتى بعده شاور
فدحه كذلك بشعر لم ينس فيه الوفاء لسابقه ، ثم سلبت الوزارة لصلاح الدين
فحاول الشاعر أن يتصل به وبغيره من أمراء البيت الايوبي ، وكان يحسب أن
أمرهم في مصر لن يعدو أن يكون كأمر شاور وضرغام وغيرهما من الوزراء
العظام . غير أن صلاح الدين — عملاً منه بمشورة القاضي الفاضل — لم يأمن
هذا الشاعر اليني على ملكه وقومه ، ورأى الشاعر ذلك منه فصدع الحزن قلبه
وملا اليأس نفسه ، ومع ذلك ذهب الشاعر مرة إلى صلاح الدين بتقصيدة يهنته
فيها بالوزارة ، وفيها يقول :

ولولا اعتقادي أن مدحك قرينة أرجى بها نيل المثوبة والاجر
لما قلت شعراً بعد إعفاء خاطري ولي سنوات منذ تبث عن الشعر
فأوص بي الايام خيراً فانها مصرفة بالنهي منك وبالامر
وجازتي تسهيل أذني عليكم وملقا كولي بالاطلاق والبشر
ولقد كان سهلاً على الوزير العظيم أن يسهل أذنه للشاعر المحروم ، وأن يتلقاه

بالطلاقة والمشر كما يلتقي غيره من شعراء مصر ، لولا خوض هذا الشاعر في
إفساد الدولة الجديدة خوفاً أفقده عطفها ، وقطع عليه كل أمل في تقريب
أمرائها . ونظر عمارة فاذا هو ممن في رجائه ، والسلطان ممن في اعراضه وجفائه ،
ففسر أخيراً في أن يذهب اليه بقصيدة يراهن بها على حياته ، وفيها أخذ الشاعر
المسكين يعدد نعم الفاطميين ، ثم يتجه الى صلاح الدين فيضرع اليه في ألا يقطع
عنه إكرامه وعطاءه ، فانما هو شاعر غريب أتى الى مصر في طلب الجاه والثروة ،
ولامطمع له في غيرهما . فلنسمع اليه في هذه القصيدة التي جعل عنوانها « شكاية
المتظلم ونكاية المتألم » حيث يقول :

أيا أذن الايام إن قلت فاسمعي	لنفثة مصدور وأنة موجع
تقاصر بي خطب الزمان وباعه	فتصر عن ذرعي وقصر اذرعي
فيمت مصرأ أطلب الجاه والغنى	ففلتتما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم	فأحمد مرتادى وأخصب مرتعي
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه	من الحكم المصغى الى فأدنى
سكت فتالت ناطقات ضروري	إذا حلقات الباب علقن فاقرع
أعندك أنى كلما عطس امرؤ	بذى شمم ألقى عطست بأجدع
ظلامه مصدوع الفؤاد فهل له	سبيل الى جبر الفؤاد المصدع
فيا زارع الإسلام في كل تربة	ظفرت بأرض تنبت الشكر فازرع!

عجبا لهذا الشاعر المحزون كيف يطمع في أن يكرمه صلاح الدين . ويدينه وبين
الدولة الزائفة كل هذا الود ؟ إن للسياسة حكما غير هذا الحكم الذي رضيه الشاعر
لنفسه ، وإن للقوم لعقلا يستطيع ألا ينخدع بلطف هذا الشاعر ومكره ، ولقد علم
هؤلاء القوم أن الشاعر يشترك مع رجال الدولة القديمة في تدبير مؤامرة عظيمة
يراد بها إسقاط السلطان ، كما يراد بها إرجاع الجيوش الشامية كلها إلى الشام .
ثم إن هذه المؤامرة التي اشترك فيها عمارة كانت بدد عامين من حدوث المؤامرة

التي اشترك فيها مؤتمن الخلافة . بل كانت كل واحدة منهما في الواقع ردا على
حادثة عامة من الحوادث التي اودت بهذه الخلافة . وليس شك في ان أخطر
الحوادث التي أزعجت هذه الخلافة حادثان هامتان هما : حادثة تولى صلاح الدين
الوزارة . وبعدها حدثت مؤامرة المؤتمن « . ثم حادث إقدام صلاح الدين على
قطع خطبة العاضد « وبعدها دبرت مؤامرة هذا الشاعر الفطن « غير ان هذه
المؤامرة الاخيرة كانت أبعد مدى واوسع نطاقا وأشد احكاما وأغنى رجالا »
لانها قامت بعد وفاة العاضد وزوال دولته ووثوب انصارها واشياعها يبدلون
آخر ما في وسعهم لاسترجاعها « فإن ظفروا به فذاك » والا فقد ابلوا عند
انفسهم عنرا يطمثنون اليه

وكان من رجال هذه المؤامرة قاضي القضاة « وداعى الدعاة » وكثيرون من
امراء الجيش المصرى وكثيرون من حاشية القصر الفاطمى ، ومع هؤلاء جميعا عمارة
اليمنى الذى لا شك انه كان عاملا خطيرا في تدميرها تديرا محكما من جميع جوانبه .
وخلاصة الخطة التي وضعت للمؤامرة ان يتواطأ اصحابها مع جماعة من
أمرأ صلاح الدين كانوا قد استهوهوهم بالمال حتى أطلعهم هؤلاء على كثير من
أسرار السلطان ، ثم اتفقوا جميعا على إسقاط صلاح الدين ، كما اتفقوا فيما بينهم
على تعيين الخليفة والوزير ، وعلى تقسيم الأملاك والدور ، وعلى استدعاء الفرنج
من صقلية والساحل للاستعانة بهم في الوقت المناسب . ورأوا يومئذ أن
يستعينوا كذلك بفرقة كان لهم في القرنين الخامس والسادس ما كان للقرامطة
من الخطر على العباسيين في القرن الرابع — ونعني بها فرقة الاسماعيلية ففكر
عمارة في كل ذلك ، ثم فكر كذلك ، إمعانا منه في إحكام الخطة التي وضعها
لإنجاح المؤامرة — أن يغرى بملك اليمن أميرا من أخطر أمراء بني أيوب هو
(شمس الدولة) الذى كان صاحب الفضل الأكبر في انتصار عساكر السلطان

في وقعة السودان . وقصد الشاعر الماكر من وراء ذلك هو أن يبعد هذا الأمير
الخطير عن أخيه خوفاً من أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده . فانتظم
الشاعر في سلك الأمير ، وكان كما خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها
وضعف ولايتها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها ، ومن جملة الشعر الذي أغراه
به يومئذ قصيدته التي منها :

أمامك الفتح من شام ومن يمن فلا ترد رؤوس الخيل بالاجم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به إلى سواك وأور النار في العلم
فرب أمر يخاف الناس غايته والأمر أهون فيه من يد لقم
والغريب أن هذا الأمير خدعه قول شاعره فصدقه ولم يشك في نصيحته ،
وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بمروءته ، فدخل على أخيه السلطان واستأذنه في
في دخول اليمن فاتحا فأذن له السلطان يومئذ لحاجة في نفسه — هي أن يخلص من
مراحته لأنه الأخ الأكبر له في مصر . . . ثم تشاء الأقدار المصادقة للسلطان
أن تنكشف مؤامرة الشاعر وأصحابه ، وأن يكشف عنها القاضي الفاضل بذكائه
فيحيط ، السلطان عليها بالمتآمرين ويأتي بهم ويقررهم فيقروفي ، فيأخذهم جميعاً
ليصلبهم وفيهم هذا الفقيه الشاعر الذي دبر خطتهم وهو عمارة اليمن . وأما الذين
نافقوا على السلطان من أجناده فلم يتعرض لهم ، ولا أفهمهم أنه عارف بحالهم
وذلك لسياسة منه رجع فيها كذلك لرأى الفاضل .

بذلك تم اقتضاح المؤامرة ، ثم أعقب ذلك مجيء الفرنج وكان أحدهم —
وهو صاحب صقلية — قد بعث بأسطول عظيم إلى الاسكندرية فحمل الأسطول
على هذه المدينة حملة صادقة ، وقتل من أهلها يومئذ نحواً من سبعمائة ، ونهض
السلطان بعسكره إلى هناك فهجم على الفرنج في خيامهم فلم يسلم من فرسانهم إلا
من ألقى نفسه يومئذ في البحر . . . !

وهكذا فلتجبط المؤامرة التي اشتركت فيها أيها الشاعر البني ، وهكذا فلتنه
 بهوان الدولة التي بذلت في سبيل ارضائك كل شيء ، ثم هكذا فلتطل أيها الشاعر
 قبل موتك في رثائها ، وليسكن من ذلك لاميته التي يشهد الأدب العربي أنها
 من أروع القصائد التي قيلت في رثاء الدول ، ومنها قولك :

رमित يا دهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حسن الحل بالعطل
جدعت ما رنك الأقي فأنتك لا	ينمك ما بين قرع السن والخنجل
لطف ولطف بني الآمال قاطبة	على فيعتها في أكرم الدول
يا عاذل في هوى أبناء فاطمة	لك الملامة إن قصرت في عدل
بأنه رز ساحة القصرين وابك معي	عليهما — لا على صفين والجل !!!
وقل لأهليهما والله ما التحمت	فيكم قروحي ولا جرحي بمنديل
مررت بالقصر والأركان خالية	من الوفود وكانت قبلة القبل
فلت عنها بوجهي خوف منتقد	من الأعادي ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعى غداة خلت	رحاكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما ترامت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهي لم تحل
والله ما فاز يوم الحشر مبغضكم	ولا نجا من عذاب الله غير ولي
ولا رأى جنة الخلد التي خلقت	من خان عهد الامام العاضد بن علي
أتمى وهداتي والذخيرة لي	إذا ارتهنت بما قدمت من عمل

وكانت هذه القصيدة الحزينة قد أعادت للناس ذكرى القصائد الشيعية القديمة
 التي جرت على ألسن الشعراء العلويين الأقدمين ، والتي جعلت لأدبهم ذلك
 اللون القاتم الجميل ، لأنه لون كلون الطيف : فيه حمرة الدم ، وفيه غبرة اليأس
 وفيه صفرة الخوف ، وفيه بياض مظلم هو بياض نفس هضم حتما وآمنت مع ذلك
 إيماناً صادقاً بأنها لا بد أن تظهر به ... !

وطبعي ان فشل مؤامرة كالمؤامرة السابقة لا يدع أملاً لدعاة الفاطميين

في أن تنجح لهم بعد محاولة . ومع ذلك فقد ثار على صلاح الدين رجل من المصريين في الصعيد واسمه (كنز الدولة) زعم أنه يستطيع أن يعيد الدولة فاطمية علوية ، فجمع اليه خلقاً كثيراً من السودان وانتهى خبره الى السلطان فجرد له عسكرياً عظيماً ، وقدم عليهم أخاه (العادل) ، فسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصاف ، فكسرهم وأخذ ثأرتهم . . .

ومنذ يومئذ والسلطان الملك الناصر صلاح الدين ينظر فاذا مصر الغنية كلها في قبضته ، وإذا هو يفكر في أن يستعين بأموالها على بلوغ أمنيته ، وما أمنيته هذه إلا أن يسترجع القدس من أيدي الفرنج . ولكن كيف يتيسر له ذلك والطريق إلى القدس غير ممهد ؟ أم كيف يتيسر له ذلك والفرنج يقعدون له ولغيره من ملوك المسلمين كل مرصد ؟ بل كيف يتيسر له ذلك وصاحبه ومولاه نور الدين بالشام قد خيل اليه وإلى الناس يومئذ أنه بدأ يغار من صلاح الدين ، ويظهر كأنه أستاذ محقق أو شك أن يحقد على تلميذ له تفوق عليه .

جاء

قال الأمير الشيخ لابنه السلطان: «أتدرى يا ولدى منذ كم تغير عليك قلب نور الدين؟» .

قال السلطان: «أحسب أن ذلك يا أبى منذ أقدمت على أن أكون وزيراً للعاصم الفاطمى، وأخذت خلع الوزارة قبل أن يأتينى من نور الدين إذن بقبولها» .

قال الشيخ: «هوذا يا ولدى — فمئذ يومئذ والغيرة منك تدب فى قلبه والحذر من أن تستقل بمصر وتظهر التشيع بها لإرضاء للخليفة المصرى يشغل باله ويشير هو اجسه» .

قال السلطان: «والله يا أبت — لقد صبرت منه على حزم المدى ووخز الإبر؛ وما قدر أحد من أصحابه حتى الساعة أن يجد على ما يعتبره ذنباً؛ وقد اجتهد هو نفسه أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر؛ ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لا يصبر أحد على مثلها لعل أتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له الى دنايتى فما أبلغته مأربه» .

— نعم ما فعلت يا ولدى؛ وهذا ما نصحت لك به دائماً فلعلك رهن هذه التى تسلكها وتصر على اتباعها» .

— «ذلك ما فكرت فيه من جهة نور الدين، وإنى لأفكر أيضاً فى غير نور الدين بمن أخافهم على نفسى...» .

— «ودن هم أولاء يا ولدى حتى أعينك عليهم» .

— «هم اخوتى يا أبى، اذ ينظرون الى بالعين التى عرفها يوسف من اخوته،

وقد بت أخشى غيرتهم ، وأنا أعلم في الوقت نفسه أن أقطاعهم بمصر لا يقوم بمروءتهم ، فأحاول أن أشغلهم عنى بفتح يعود خيرها عليهم ، وتسكون مع ذلك ردماً لنا اذا فكر نور الدين في مهاجمتنا في الديار المصرية ليخرجنا منها أذلة » — ونعم وهذا رأى أيضا ، فما الذى تم فى أمر هذه الفتوح التى يقوم بها اخوتك ؟ » .

— « هذا أخى شمس الدولة قد أذنت له فى دخول « النوبة » فاتحاً ، فلما لم يجد بها شيئاً نافعاً عاد وطلب أن يسير لفتح (اليمن) ، فأذنت له فى ذلك ، وغداً يذهب الى هناك ويقتل الخارجى الذى ظهر بتلك البلاد ، وقد بلغ من حمق هذا الخارجى أن دعا الناس بها الى قبر أبيه بعد اذ جعل عليه قبة من ذهب وسماه كعبة ؛ وحمل الناس على حجه والانصراف عن مكة . »

— « يا له من غبى جاهل ، لى عندى أشد غباء من هذه الفئة التى أورثنا الله ملكها وأذن لنا فحسبنا سلايتها فى القصر الفاطمى لا يتصل فيه نساؤهم برجالهم كى لا يتناسلوا . ألا فكرت أيضا فى أن نتعقب هذه الفئة فى موطنها الأول ، فى بلاد المغرب ؟ » .

— « هذا ما فكرت فيه جيداً وذلك منذ أطمعنى فيه الخادم بهاء الدين قراقوش وهو جندى باسل ، وفارس غيور يتصف بالأمانة . ألا ترى مقدرته على صيانة القصر الفاطمى منذ تسلمه اذ لم يدع شيئاً يخرج منه أو يدخل فيه إلا باذنه » .

— « ولكن كيف السبيل الى تحقيق هذه الآمال . ومولاك نور الدين بالشام لا يرضى عن هذه الفتوح التى تشغل بها نفسك الآن يرى فيها اضاعه للوقت وتبديداً للنال واجهاذاً للترك الذين عليهم أن يعدوا أنفسهم لمحاربة الفرنج فى هذه الجهة التى تفصل الآن بينك وبينه — وهى جهة (الكرك والشويك)

وقد بات هؤلاء الفرنج لا يخشون الا حراب الترك ولا تقشعر جلودهم الا من بقائهم في موطن القتال » .

وكان القاضي الفاضل دخل منذ برهة سمحت له بأمر يسمع طرفاً من هذا الحديث فقال :

— « ليأذن لي المولى أن أقول في هذه المسألة الأخيرة رأياً أدركته في ذهني منذ أيام » .

قال الشيخ : « فقل يا عبد الرحيم » .

قال : « ليس الرأي عندي يا مولاي أن تعين نور الدين على مطاردة الصليبيين الذين يحتلون المنطقة التي تفصل الآن بيننا وبينه ، فهي وإن كانت في أيدي أولئك الكفرة الظالمين ، بل في يد طاغية منهم هو (ارناط) ^(١) المعروف بايذائه للسلبيين ، الا أنها يا مولاي بمثابة الخليج الذي يعصمنا الآن من شر نور الدين ، ويجعلنا في مأمن منه حتى نعد أمورنا ونثبت أقدامنا ونكون بحيث لا يستطيع أن يخرجنا من ديارنا بمجرد رغبته ، أو لأنه يريد أن ينتقم منا حين لا يتيسر لنا أن ننفذه له مشيئته » .

قال الشيخ : « فالرأي عندك إذن أن تبقى هذه المنطقة مؤقتاً في يد الطاغية ؟ »
قال الفاضل : « نعم فليست المصلحة الآن في أن نخلى الطريق بيننا وبين رجل الشام » .

فالتفت الأمير الشيخ للسلطان وقال : « وأنت يا صلاح الدين — ما الذي تراه في هذه المشكلة ؟ » .

فسكت السلطان برهة قصيرة ثم قال : « ... مسألة يجيب عنها صلاح الدين

(١) واسمه Renault في الكتب الأوربية

القائد الكردي السياسي اجابة لا يرضى عنها صلاح الدين التابع القديس . . !»
فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ونظر الى ابنه نظرة فيها غير كثير من
الغربة ثم قال : « الآن حين استحكت وتقدم بك العمر » !! . — قل ما الذى
تعنيه بكل ذلك ؟ » . قال السلطان :

« الحكمة كلها فى رأى الفاضل . فالسياسة هى التى أملت عليه هذا رأى
الحكيم ، والسياسة هى التى قد تحملنا على مخالفة نور الدين . وأنا أعز أن المخالفة
لا تتفق والغرض الذى جئنا من أجله الى مصر ، وهنا أطرق الشيخ طويلا
كأنما يدبر هذا رأى فى ذهنه ويزنه بميزان عقله ثم رفع رأسه وقال : « وأنا
ايضاً قد بدا لى صدق هذا رأى .

قال السلطان « وما تقول عبد الرحيم فى هذه الفتوح التى أشغل بها اخوتى
ليكسبوا لأنفسهم الشهرة فى ميدان الجهاد ، والمال الذى يقوم بمروءتهم فى
تلك البلاد ؟ » .

قال الفاضل « آفة هذا رأى يا مولاي أنه يستنفد جميع ما نملك من المال ؛
وصاحب الشام ينتظر فيما ينتظره منا أن نقرر له مالا نحمله اليه ليستعين به على
كلف الجهاد الذى وهب حياته له . » .

قال السلطان « فانا قد بعثنا له بهدية من نفائس القصر الفاطمى ؛ وما أكثر
هذه النفائس التى به ، وما أثنى عليها ، ورأيت أننا أنفذنا الى الخادم بهاء الدين
قراقوش أن يعدها فأعدها وبالحق فى اعدادها ، وكتبت أنت الخدمة (الرسالة)
التي سارت بالهدية الى صاحب الشام منذ أيام . » .

قال الشيخ « حسن كل ذلك يا ولدى ؛ وان كنت أعلم من أخلاق نور الدين
أن هذا الهدية على عظمتها لن تسره وانه . . . » .

وأراد الشيخ « أن يتم كلامه لولا أن علم فى تلك اللحظة برسول أتى من قبل

نور الدين ويبيده رسالة الى صلاح الدين ، يأمره فيها أن يجمع العساكر المصرية ويسير بهم الى بلاد الفرنج وينزل على (الكرك والشويك) ويحاصرهما ريثما يجمع هو عساكره ويسير اليهما ، ثم يجتمعان هناك على محاربة الفرنج والاستيلاء منهم على هذه المنطقة التي تفصل بينهما وتقف حجر عثرة دون الغاية التي يعملان لها وهي مطاردة الفرنج .

وقرأ السلطان الرسالة التي بعث بها نور الدين ، ثم دفع بها الى أبيه ليقرأها ويقرأها معه عبد الرحيم . ونظر الثلاثة كل الى الآخر نظرات سريعة ، وسكتوا سكوتاً مريباً ، ما لبث أن قطعه عليهم الأمير نجم الدين بقوله يخاطب الرسول : وما بال الهدية التي بعث صلاح الدين الى مولاه العظيم ؟ » .

قال الرسول : « أ كبر الظن عندي أنها يا مولاي لم تقع منه بموقع » .
قال الشيخ : عجباً يملأ القلب ! ولم ذلك ؟ »

قال الرسول : بينا أصحاب مولاي نور الدين يطيلون النظر في هدية السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ويظهرون اعجابهم بها ، ويتخيلون نفائس القصر الذي حوى الكثير من أمثالها ، اذ بمولاي نور الدين يخاطب نفسه بصوت سمعه الذين معه ويقول : ما أنتمنا الذهب في ملك مصر وبنا الى الذهب حاجة ، ثم تمثل قول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربي بكثرتة على الحصى وفيه فقر الى الذهب
فأقبل السلطان على الرسول يلاطفه ويغير مجرى حديثه ثم قال له :
« قل لمولاي نور الدين إنني لن أتأخر عن الذهاب بالجند الى لفكرك »
فرجع الرسول اليه يبلغه كل ذلك . فرحل نور الدين عن دمشق الى الكرك وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول ، وذلك لاختلال البلاد ورغبة أهلها في الثورة على النظام . وأتى الكتاب نور الدين فغضب لذلك

غضباً ذهب بكل حلمه، وشق ذلك على نفسه، وعزم على دخول مصر وإخراج السلطان منها.

وبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده وخاله شهاب الدين واستشارهم، فكلهم أشار عليه بالصمت وبالصبر، ثم قام من بينهم فارس شاب حاد الطبع، هو ابن أخي السلطان واسمه (تقي الدين عمر) فقال:

« مالنا نخاف نور الدين — وهو اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن بلادنا بسيفنا هذه ».

فوقع هذا الكلام موقعاً حسناً من نفس السلطان وهم أن يظهر الرضى به وأحب أن يتكلم في ذلك لولا أن سبقه أبوه بقوله يخاطب تقي الدين عمر:

« اقعد أيها الصبي النزق، اقعد أيها الشاب الطائش، لبئسما تشير به. ألهذه الغاية تأكل مال المسلمين؟ ولهذه الغاية أمرنا عليكم نور الدين؟ ».

ثم اتجه الى السلطان وقال له.

« أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك — أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ قال لا. قال نجم الدين:

« فوالله لو رأيت أنا أو رأى خالك نور الدين قادماً ما استطعنا إلا أن نترجل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا. فإذا كنا نحن هكذا — فكيف يكون غيرنا؟ وكل من تراهم هنا من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولا وسعه الى النزول وتقبيل الأرض بين يديه. وإنما هذه البلاد له، وقد اقامك فيها، فان شاء عزلك، ثم لا يحتاج الى المجيء هنا لهذه لغاية، يأمر بك بكتاب مع نجاب (رسول) حتى تقصد خدمته ويولى البلاد بعد من يريد ». ثم التفت كذلك للقائد الشيخ الى الجند وقال: واسمعوا جميعاً أيها الجند — نحن بمالك نور الدين

وعيسيه، وليفعل بنا ما يريد ، إن شاء بقينا في مصر ، وإن شاء نزلنا على رأيه
وخرجنا عن مصر ، ونحن هنا جنوده وأتباعه . باسمه فتحنا ما فتحنا ، وباسمه
نفتح كل بلد نريد بعد أن نفتح . »

وتفرق الجند بعد ذلك ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين يعلمونه كل ذلك
قال ابن الأثير : ثم خلا الشيخ بابنه وقال له :

أنت يا ولدى جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع العظيم وتعلمهم على ما في
نفسك . فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد ، جعلك غرضه الذي
يرمى إليه ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، بل تراهم جميعاً
يسلمونك إليه . وأما الآن — بعد هذا المجلس — فسيكتب إليه أكثرهم
ويعرفونه قولي . وتكتب له أنت أيضاً وترسل في هذا المعنى وتقول له :

« أي حاجة إلى قصدي أيها المولى ، يحسب نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي
ويأتي بي إليك ، فهو إذا سمع هذا منك عدل عن قصدك واشتغل بسواك » .

قال السلطان « صدقت يا أي ، وكنت من الناصحين . انني من أجل هذا
أفكر في الذهاب بنفسى إلى السكر ، فإذا وصلت إلى هناك بعثت أنت في طلي
بحجة اختلال البلاد » قال الشيخ « فاذهب على بركة الله » .

وذهب السلطان إلى ذلك المكان ، وعلم مولاة بهذه الغزاة أتى نفي السلطان
بها عن نفسه تهمة العصيان ، ثم فكر السلطان في العودة إلى بلاده ، وأنه اتى
الطريق إليها وإذا بكتاب ورد إليه منها ، فيه نبأ عظمت به لودته ، واشتدت
كما يقول الفاضل به حسرته وروعته ، ذلك النبأ هو موت أبيه نجم الدين بسبب
وقوعه عن فرس له كان يركبه في أثناء لعب الكرة . فأخذ الفاضل يهون على
صاحبه هذا المصاب العظيم ، ويقطع الطريق بحديثه له عن الصبر والصابرين ،
ويتأسى معه بقول الذي يقول :

وتخطفته يدى الردى فى غيبتى هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع ؟ !
وذلك حتى دخلا مصر .. وبيننا هو غارق فى هذه الاحزان ، وبيننا هو
خائف فى الوقت نفسه من مداهمة صاحب الشام ، اذ به يسمع بموت هذا الرجل
أيضاً فيحزن عليه ، ولكن يشعر فى قرارة نفسه أن حزنه لموت نور الدين
قد خفف شيئاً كثيراً من لوعته على أبيه نجم الدين ؛ وأزاح ضيقاً من صدره
كاد يتلفه ويودى بمستقبله ... ؟ ! أما المسلمون فجزعوا جميعاً لموت هذا البطل ،
وضجوا بالدعاء له أن يجزيه الله خير ما عمل ، ولهجوا يومئذ بذكر هذه القصة
التي شاعت بينهم على أنها آية حبه للجهاد الدينى وهى :

« أن الفرنج لما نزلوا دمياط فى الحصار الذى قال فيه نور الدين محمود : انى لأستحي
أن يرانى الله مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج ثم فى الليلة التى رحلوا عنها
رأى امام لنور الدين محمود فى منامه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : أخبر
نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة . فقال يا رسول الله ربما
لا يصدقنى ، فأذكر له علامة يعرفها ، فقال له النبى : قل له بعلامة ما سجدت
على تل حارم وقلت اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً ، ومن هو محمود الكلب
حتى تنصره ؟ قال الإمام فانتبهت من نومي ونزلت الى المسجد ، وكان من عادة
نور الدين أن ينزل عليه بفلس ، ولا يزال يتشهد فيه حتى يطلع الصبح قال :
فتعرضت له فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة الا أننى لم أذكر
لفظة الكلب . فقال نور الدين محمود : اذكر العلامة كلها . وأخ فى ذلك . فقلتها
فبكى رحمه الله رحمة واسعة وصدق الرؤيا . »

فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج عنها .

ميراث

مات نور الدين وخلف ابناً اسمه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من عمره ، فالتف حوله أمراء أبيه بحجة أنهم يشتركون في تدبير أمره ، وهم الوقت نفسه يتمكنون منه تمكناً عظيماً أو شك أن يكون نوعاً من الحجر عليه . ومات كذلك أهل المسيحيين بفلسطين ، وهو عمورى أو (أماريك) ملك بيت المقدس ؛ وترك عرشه لصبي صغير اسمه (بولدين) . فأصبحت الإمارة الفلسطينية كالمملكة النورية قطراً منقسماً على نفسه ، بسبب تنازع الأمراء وابتات الأمراء في هذين القطرين معاً لا يخافون شيئاً قدر ما يخافون السلطان لعلمهم أنه بقوة نفسه وبعد غايته وكبير أمله ، أحق منهم بأن يرث كل هذا الملك ! وبينما السلطان يستعرض هذا الموقف السياسى الجديد ، إذ أقبل عليه القاضى الفاضل كعادته ، فقال له السلطان :

« هلم يا عبد الرحيم وأدر ذهنك فيما نحن فيه :

هذه مملكة نور الدين قد انشعبت وظهر فسادها : كل قلعة من قلاعها الى صاحب ، والفرنج من حولهم يبنون قلاعاً يتحيفون بها من أطراف الاسلام ، وأمراء الدولة النورية فوق هذا كله لا يستحيون أن يكون بينهم وبين أولئك الفرنج حلف ووثام !! » .

قال الفاضل : « لعل مولاي يعلم أنهم لا يفعلون ذلك حباً فى على ؛ ولكن خوفاً وكراهية لمعاوية .

قال السلطان : « نعم أعلم ذلك جيداً . ولكن من لى بمن نخر هؤلاء الغافلين

أنه لا سبيل الى طرد الفرنج من بلادنا الا بأمر واحد ، هو توحيد جهودنا .
وأنت ترى الآن أنى أكبر ملوك الإسلام سناً . . . » .

قال الفاضل : « بل أكبرهم يا مولاي خطراً وشأناً ! »

قال السلطان : « فما الحيلة اذن فى هؤلاء الأمراء ؟ أتتركهم ونحارب الفرنج حتى نخلى منهم البلاد ، أم ندع الفرنج ونحارب هؤلاء حتى يدينوا لنا بالطاعة ويتركوا لنا هذا الغلام ؟ »

قال الفاضل : « لو ترك مولاي أولئك الأمراء يتنازعون فيما بينهم أمرهم لانفردت مصر عن الشام ، ولطمع الكفر فى بلاد الاسلام . »

قال السلطان : « أعلم ذلك جيداً يا عبد الرحيم . بل من أجله أفكر فى طريقة أتدخل بها فى شؤون الشام حتى لا يستأثر به الأمراء الذين التفوا حول الغلام ، يوهمونه بأنى عدوله ، مع أنى أنا الأولى منهم جميعاً بتربيته ، والقيام عليه . »

قال الفاضل فالرأى عندى أن تبعث بالكتب الى هذا الغلام تؤكد له فيها طاعتك واخلاصك ، وتفصح له فيها عن رغبتك فى تربيته والقيام بأمره والمحافظة عليه . »

قال السلطان : « فاذا أنكر الأمراء الذين معه هذه الكتب ؟ » .

قال الفاضل : « فاصبر يا مولاي اذ ذاك ، فسيأتى اليوم الذى يستصرخك فيه بعضهم على بعض ، فاذا غصبهم الفرنج شيئاً من أملاكهم فسيتجهون جميعاً اليك لتنقذهم من هذا الشر . ويومئذ يذهب المولى الى هناك ليحفظ الولد القائم بعد أبيه ، ويعرف هذا الولد ، ويعرف الناس معه أنك أولى بأن ترث ملكه وتضمه الى مملكك وتستعين بهما على هذه الغاية التى كان يحلم بها نور الدين نفسه . وهى مطاردة الفرنج . »

وبعث السلطان بهذه الكتب الى الغلام ، فقرأها الأمراء هناك ، وسخطوا

على السلطان ، ثم اختلفوا بينهم في الرأي . وانهم انى انقسامهم وتنازعهم في
أرائهم ، وإذا بالفرنج يغيرون على مدينة لهم هناك ، وهى مدينة « بانياس »
فلا يستطيع الأمراء النورية ردهم عن هذه المدينة إلا بانفاقهم معهم على جزية
سنوية يحملها الشاميون للفرنج ، فذلك أجدى عليهم ، وأسلم عاقبة في رأيهم من
استدعاء صلاح الدين ليحول بينهم وبين أولئك المغيرين .

غير أن صلاح الدين لم يكذب يسمع بهذه الإهانة التى لحقت بالمسلمين حتى ثار
غضبه ، واستثيرت حميته ، واتخذ من ذلك حجة له على سرعة التدخل فى شؤون
الشام . فاستقر رأيه على الذهاب إلى هناك . وعلم الغلام وأمرأؤه بذلك كله فتركوا
له دمشق ، وفروا من وجهه إلى حلب . فأتى السلطان دمشق ودخلها من
غير تعب .

أما الأمراء الذين فروا الى حلب فقد استشاطوا غضبا من السلطان ،
وأكلت الغيرة قلوبهم من بأسه وصعود نجمه ، ونجاح أمره ، فبعثوا اليه بخطاب
شديد اللهجة مع رسول منهم ، فأكرم السلطان رسوله ، وتلقاه بالبشر واللفظ
والكرم واللين . ثم قال له :

« يا هذا — ارجع اليهم لتقول لهم : إننى إنما وصلت إلى الشام لجمع كلمة
الإسلام . ولترية الملك الصالح وصيانيته وصيانة الشرف الاسلامى نفسه من
عار الجزية التى تدفعونها للفرنج . وقل لهم يا هذا : ان المنية لو لم تنجىء مولاى
نور الدين لدفع الى بمولاى ابنه الملك الصالح إسماعيل ليكون فى كنفى وتحت
رعايتى ، فأنا أولى به من غيرى ، لأنى القادر على حمايته من أذى الذئاب التى
تقنوشه من الفرنج » .

منذ ذلك الوقت والحليون وغيرهم بالديار الشامية يقفون فى وجه السلطان
كما وقف الفاطميون له من قبل فى الديار المصرية

وكما يسر القدر لهذا البطل أن يكون الوارث الحقيقي للفاطميين ، فكذلك يسر له أن يرث ملك نور الدين ، أو أن يرث هذه البقعة المباركة من الأرض التي شهدت أول قبس من نور رسالة هبطت منذ حين على هذا البيت الأتابكي الكريم ، ليقوم بنصيبه في الجهاد من أجل الدين ، ويزيل الفرنج المسيحيين الذين جاءوا من بلادهم النائية بحجة أنهم يحمون القبر المقدس .

وجمع الأمراء الحلييون جمعهم ، وكادوا للسلطان كيدهم ، والتفوا بالملك الصالح إسماعيل يستغلون طفولته في إثارة شعور المسلمين وإيغار صدورهم على صلاح الدين .

ثم أخذ الحلييون يستعينون على السلطان بجميع أعدائه في الشام . وكان من أعدائه هذه الفرقة الخطيرة التي كانت تعتصم بالجبل ، والتي كانت مصدر قلق دائم للرجل ونعنى بها فرقة الاسماعيلية . فاتفقوا مع هؤلاء على اغتيال السلطان ودخلت جماعة آثمة منهم الخيمة على حين غفلة من جنده ، ورفعت السيف لتقتله به ، وإذا العناية الإلهية تكشف عن أمرها ، وتدل عليها من جند السلطان من يمسك بهذه اليد الخائنة المجرمة أن تهوى على رقبتها .

ثم لم يكف الحليين ذلك حتى استعانوا على السلطان كذلك بالمواصلة وكانت الموصل إذ ذاك إلى أمير خطير من آل زنكي ، له من شرفه وعظيم منزلته ما يستنكف به أن يكون تابعا لصلاح الدين ؛ فأفهم الحلييون هذا الأمير أن السلطان يملك حلب ، ثم لا يكون له بد من قصد بلاده ، وإزالة سلطانه ، والعبث بهذا التاج الأتابكي الذي هو مصدر نعمته وعلو كلمته .

كل ذلك والسلطان ينجو من كيدهم مرة بعد أخرى ، ويوغل في فتح الشام وامتلاكه حصناً فحصناً ، والشعر أنى سار معه يسجل له كل انتصار يحرزه لنفسه ضد أولئك القوم .

وأتى يوم أصبح فيه الحلبيون ، فاذا هم محاصرون بجيش صلاح الدين ، وإذا هم مضطرون الى مكتبة حليف لهم من الفرنج كان يدعى الأمير (ريموند) أمير طرابلس ، وكان هذا الأمير أسيراً لنور الدين ثم أطلقه الحلبيون بعد وفاته ليسكون ظهيراً لهم وقت الحاجة ؛ فلما أتى الأمير صريخ الحلبين خف من ساعته الى (حمص) — وهى مدينة من المدن التى افتتحها السلطان يومئذ بالسيف — فلما هجم الأمير الصليبي عليها وجد السلطان نفسه مضطراً الى العودة اليها ورفع الحصار عن مدينة حلب . وبذلك تم للحلبيين ما أرادوا لأنفسهم ، من انقاذ مدينتهم والإفلات من مخالب هذا السبع الذى كاد يقتحم عليهم البلد .

وفكر الحلبيون أخيراً فى الأمر ، فلم يجدوا خيراً لهم من أن يكسبوا من السلطان بطريق الود والملاطفة مالا يستطيعون كسبه بطريق الغدر والغلبة والمخاشنة . وما أسرع ما يستجيب رجل كصلاح الدين لدواعى الكرم والعطف والمروءة واللين .

فهذا الملك الصالح إسماعيل يقبل بنفسه على صلاح الدين يطلب منه أن يبقى له على حلب وما حولها ، فيبقى له السلطان عليها ، ويكتفى هو بأن يكون له من حماة الى مصر ، ويترك للسائل ما فوق ذلك !

ثم هذه الخاتون ابنة نور الدين ، وشقيقه الملك الصالح إسماعيل ، تأتى اليه فى استحياء وخفر تسأله قلعة هامة من قلاع الشام ، قلعة (عزاز) ، كان السلطان قد فتحها بسيفه وضمها الى ملكه ، فيكرمها السلطان ويعزها ، ويبيكى بين يديها لذكرى نور الدين ، ثم يطلق له (عزاز) بما فيها من السلاح والمال ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يقدم لها من التحف والجواهر شيئاً كثيراً .

ثم ها هو السلطان يترك مدينة حلب ، ويفكر فى العودة منها الى مصر ، ويصمم فى طريقه على الأخذ بثأره من (الاسماعيلية) الذين طغوا وبغوا

وأعانوا عليه الحلبين ، ووثبوا عليه وثوباً فيه ما شئت من معاني الجبن
والغدر والؤم والخيانة ، فأراد محاصرة حصونهم ، والقضاء المبرم على رؤوسهم
وشياطينهم ؛ وعلم هؤلاء نيته ، وباتوا يخشون تنفيذها ، فتوسطوا لدى خاله
(شهاب الدين الحارثي) ، وسألوه أن يشفع لهم . فذهب الرجل اليه في ذلك
فقبل السلطان شفاعته ، ورحل عنهم ولم ينتقم لنفسه منهم ، وعفا عنهم مع القدرة
عليهم ، وآثر يومئذ طريق الصلح والسلام . وعاد إلى مصر بعد أن ترك في كل
بلد من البلاد التي فتحها أميراً مختاراً له .

مِثاق

فكر السلطان في مغادرة الشام، وأخذ يتأهب للعودة إلى مصر. وبينما هو في تفكيره إذ دخل عليه العماد الأصمغاني أملا في أن يقترح السلطان عليه أن يصحبه في رحلته هذه إلى الديار المصرية. وكانت للسلطان هيبة عند جميع أصحابه تمنع أحدهم من أن يبتدره بالسؤال. فلم تكذب عيننا السلطان على العماد حتى عرف العماد منهما أن السلطان بحالة يقبل فيها مزاحا، فجعل يقول:

« أأذكر حاجتي أم قد كفاني (البيت) » *

قال السلطان: « يعز علينا أن تكون لك حاجة لانقضها. أتحب أن تصحبنا في هذه المرة إلى مصر؟ أم تحب أن نقضى لك أمرا بدمشق؟ ».

قال العماد: « بل أحب أن أصحب مولاي إلى مصر، فإن شاء أخذت أهبي لهذه الرحلة التي اشتاقها، فلي سنوات لم أر فيها القاضي الفاضل، ولي سنوات يفاخرني هو بالديار المصرية، وأفآخره أنا بالديار الشامية وتدور بيننا رسائل في هذا الغرض ».

قال السلطان: « أما الفاضل فقد شغفته مصر حيا وشغفها هو حيا، وهو كثير الذكر لمحاسنها، والتغنى بنبيلها وعجائبها، وأذكر أنه قرأ علينا بعض وسائله إليك في هذا المعنى ».

ثم سكبت السلطان برهة قصيرة، مرت بخاطره في اثنائها أفسكار، ثم قال: « ترى -- ما الذي أتته الأمير بهاء الدين قراقوش من السور العظيم الذي أمرناه بإقامته حول مصر منذ حين؟ ».

قال العماد : « غداً تأتي خدمة (رسالة) من القاضي الفاضل يذكر للولي فيها ما يسره ، ويشرح قلبه ، ويطمئن نفسه . . وفي همة بهاء الدين قراقوش ، وفي قوة نفسه ، وصادق عزمه . ما يكفي يا مولاي للعمل الذي ندبه له » .

قال السلطان : « الحق يا عماد الدين أنني ما رأيت رجلاً أصدق من بهاء الدين قراقوش ، ولا أقوى منه نفساً ، ولا أعظم منه صبراً . بحيث لا يعرف الملل أو التعب إليه سبيلاً . هذا كله فرق أمانة سمينة ، وشهامة عظيمة . ونفس كريمة ، وبذل عجيب ، وقدرة قل أن يكون لها نظير في تصريف الأمور . وإنني يا عماد الدين مدين له كما أنا مدين للقاضي الفاضل ، وإليهما أرد فضل إقامة هذه الدولة التي أراد الله لها أن تقوم » .

قال العماد : « أجل يا مولاي — إذا أراد الله لدولة أن تحيا قيض لها رجالاً يعمل الواحد منهم خيراً مما أكثر مما يعمل لنفسه ، وينظر إليها كما ينظر الأب إلى ولده ، يتعمده بالتغذية والتنمية حتى يبلغ أشده ! وأنت يا مولاي قد أراد الله قيام دولتك ، وإعلاء كلمتك ، ونفاذ دعوتك » .

وهما في هذا الحديث ، وإذا برسالة ترد من القاضي الفاضل وفيها « أن بهاء الدين قد أوشك أن يتم بناء السور ، وأنه بذل فيه جهداً عظيماً وصبراً عجيباً ومهارة لا تصدر إلا عن أمثاله من أولى العزم » . ثم وصل السلطان إلى مصر ومعه العماد ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ذلك اليوم الذي عاد السلطان فيه إلى قاعدة مملكته ، وأخذ في تنظيم أمره ، وتفقد السور الذي بناه صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش .

وعلم الفرنج بمغيب السلطان عن الشام ، وكانت بينه وبينهم هدنة سعى إليها السلطان ، إذ كان من خطته التي شاركة في وضعها القاضي الفاضل أن يعمل على توحيد المسلمين في الشرق ، قبل أن يفكر جدياً في محاربة الفرنج وطردهم إلى ما وراء البحر .

ولكن التاريخ الذى سجل للسلطان بلاءه فى المحافظة على العهود والمواثيق كما سجل له صبره على هذه المحافظة مهما كلفته من خسارة أو ضيق ، هو الذى سجل على الصليبيين غدرهم وخيانتهم ، وعبثهم بكل اتفاق يكون بين السلطان وبينهم ونظرهم إلى هذا الاتفاق على أنه فرصة يجمعون فيها أشتاتهم ، ويفيقون فيها من سكراتهم ، ويعودون ذئاباً لا تعرف الرحمة سيلاً إلى قلوبهم ، كما لم يعرف الشرف سيلاً إلى أخلاقهم ونفوسهم ، حتى لقد استحي من ذلك كله مؤرخوهم وأظهروا كل الخجل فى كتاباتهم من هذا الغدر الذى صموا به تاريخهم . وكان هذا الخجل يصل إلى نهايته عند أولئك المؤرخين حينما كانوا يقدسون غدر الصليبيين بصدق صلاح الدين . وشدة حرصه فى المحافظة على وعده ، محافظة هى فى اعتباره أيسر ما يقتضيه الشرف العسكرى . !

فبرغم الهدنة التى كانت بينه وبينهم ، هجمت طائفة من فرسانهم على بعض مدن الشام ، وهزمت هنالك أحاً للسلطان كان عاملاً له على دمشق ، نجف السلطان إلى أخيه على غير استعداد . وكان أول من التقى به من أمرائهم إذ ذاك صاحب الكرك وهو (أرناط) . لقيه بجهة يقال لها (الرملة) فانتصر عليه الأمير المسيحى ، وفر المسلمون من وجهه يطلبون الديار المصرية ، وضلوا طريقهم وسط الصحراء ، ، لولا أن أدركهم القاضى الفاضل برجاله وغلماؤه وأزواده فوزعها عليهم وحثمهم على اللحاق ثانية ببقية الجيش وأسر الفرنج فى هذه الموقعة عدداً عظيماً من المسلمين . كان فيهم ذلك الفقيه العظيم (عيسى الهكارى) ، وهو صديق السلطان القديم ، وصاحب فضل عليه من قبل فى الظفر بالوزارة المصرية من يد العاضد الفاطمى . فلا غرو أن ذكر له السلطان هذه اليد الكريمة ، وشق على نفسه أن يراه أسيراً ، ففداه بقطعة من المال جسيمة . ثم كتب إلى أخيه بدمشق كتاباً جاء فى أوله :

ذكرتك والخطى تخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

ثم أتى بعد ذلك قوله « . . لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منها إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر الخ » ،

وعاد السلطان بعد هذه الكسرة إلى مصر ، والناس يحمدون سلامته من سيوف العدو . وقدم عليه الشعراء يومئذ يعتذرون له عن هزيمته ، ويخففون من وقعها على نفسه ونفوس المقاتلين معه . وكان من هؤلاء الشعراء رجل أنشد السلطان :

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهمو أن يقر فوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس مرت على إصبعيه لذة العسل ! ؟

ثم غادر السلطان مصر ، واستتاب عنه في هذه المرة أخاه الملك العادل ، وجعل الى جانبه وزيره ومشيره القاضى الفاضل ، وخرج هو للملاقاة الصليبيين ليمسح عار انتصارهم منذ حين ، فلقىهم في جهة يقال لها (مرج عيون) ، كتب له فيها النصر . وكان الأسطول المصرى فى الوقت نفسه قد انتصر انتصاراً ياهراً فى البحر ، وكان يقود شباب يحبه السلطان ويقاخر به جميع الأمراء ، وكان هذا الشاب قد أبلى بلاء حسناً فى وقعة الرملة ، ثم عاد فأظهر إقداماً نادراً ومهارة عظمت فى قيادة الأسطول المصرى ، وهذا الشاب هو (تقي الدين عمر) وهو ابن أخى السلطان ، واليه كان ينظر السلطان كما كان محمد صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ابن عمه على بن أبى طالب

ومهما يكن من شيء فقد طرب المسلمون لهذا الانتصار ، وقرت به عين السلطان ، وجلس كاتبه العباد الاصفهاني فى الخيمة الكبرى ، وأخذ يكتب أسماء الأسرى على ضوء مشعل . وكان أولئك الأسرى كثيرين وفيهم (رايونند) صاحب طرابلس . فمن كان منهم يريد أن يندى نفسه بمال يدفعه قبضه منه العباد السكاكيب وأطلقه . .

أوتى الشعراء صلاح الدين ، وكان فيهم شاعر وقف يقول :

إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور وقرة لعيون
هو يوم اضحى كيوم حنين سهل الله نصره في الحزون
إلى آخر هذه القصيدة العظيمة التي سبقتها أو تلتها قصائد أخرى كثيرة
استمع إليها صلاح الدين . ثم ترك وراءه (مرج عيون) واتجه بجيشه إلى حصن
منيع من حصون الصليبيين ، ينسب إلى فرقة كانت تلتق الرعب في المسلمين هي
فرقة (الداوية) . وكان يطلق على هذا الحصن من حصونهم (بيت الأحزان)
أو (بيت يعقوب) أو (حصن المخاض) . وكان الداوية أنفسهم قد أخذوا في
عمارتهم منذ انتصروا على السلطان بقيادة (أرناط) . وقالوا إن السلطان لما
سمع بأنهم يعملون في إقامته بذل لهم مالا عظيما ليعملوا عن ذلك فأبوا . فلم ير السلطان
بدأ من قتالهم ، فذهب إليهم ، وانصر بجيوشه عليهم ، وأجهز على هذا الحصن
الذي كانوا يستمدون منه قوتهم المعنوية . ثم تركهم السلطان وعاد إلى دمشق
وكان في انتظاره الشعراء الذين تغنوا بهذا النصر ، وكان فيهم شاعر من شعراء
مصر قال يخاطب صلاح الدين ، ويسخر من غدر الصليبيين .

وقفت على (حصن المخاض) وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
أيسكن أوطان النبين عصبه تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكمو ، والنصح في الدين واجب

ذروا (بيت يعقوب) فقد جاء يوسف !

ثم رغب الفرنج في الصلح والهدنة . فوهبهم السلطان الصلح والهدنة ، وبنى
الشعراء يوم الصلح ، كما تغنوا من قبل يوم النصر ، لأنه كان صلحا عاما دخل
فيه الفرنج والمشاركة والروم ، كما دخل فيه أهل الموصل وديار بكر وحلب .
واتفق الجميع مع السلطان ألا يشعروا في وجهه سيفاً ، ولا ينقضوا له عهداً .

ولكن دلت الأيام بعد ، على أن النفس التي طبعت على الغدر لا يمكن أن يصدر عنها غير الغدر ، وأن النفس التي جمعت على الصدق لا يمكن أن تسام خطة غير الصدق ، وأن هذا الرجل الكريم إن صح أن يكون له ذنب عظيم ، فهو أنه كان يثق بوعود أعدائه دائماً ، برغم أن أعداءه لم يصدقوا ما عاهدوه عليه مرة واحدة وهنا نجد القصص والتاريخ ، أو نجد الأدب والأخلاق مجالا لحديث له أهميته ودلالته :

فقد يعجب الناس برجل عبقرى فى الحروب ، يستهزئ بالخطوب :
كاليث بل مثله الليث المصور إذا غنى الحديد غناء غير تغريد
يلقى المنية فى أمثال عدتها كالسيل يقذف جلوداً بجلود
أو يعجب الناس برجل داهية خطر ، ينال بالرفق مالا يناله الجبار بالبطش
أو العنف . ويصدر رأى فتاى الحوادث كلها شاهدة على صدقه ومبلغ نفعه :
موحد الرأى تشق الظنون له عن كل ملتبس منها ومعقود
أو يعجب الناس برجل رقيق الحس ، له قلب ينبض بمعانى الرحمة والحنان ،
وله نفس تفيض بمعانى البر والإحسان :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
قد يعجب الناس بكل رجل من هؤلاء ، ويتجاوز إعجابهم به حدود المدح
والإطراء ، ولكن إعجابهم هذا لن يكون فى حالة من الحالات أصدق منه فى حالة
الإعجاب بخلق الوفاء ، يصدر عن نفس كريمة عظيمة هى هذه النفس التى لا ترضى
لصاحبها يوماً ما بأن يربح الدنيا كلها بطريق الغش أو الخيانة ، ما دام فى قدرته
أن يكسب جزءاً ضئيلاً منها بطريق الصدق والأمانة ، ومعنى ذلك أن زيادة إعجاب
الناس بخلق الوفاء ، مصدره أن الوفاء يكلف صاحبه من المشقة أكثر مما تكلفه
الفضائل الأخرى .

وهكذا كان صاحب السيرة التي نكسبها جندياً لا نظير له في ميادين القتال.
وسياسياً له من طبيعته الكردية المأكرة ما أعانه على أن يكون رجلاً في ميدان
السياسة ذابال ، ورحمياً إلى الحد الذي تسمع به ، فتحكم أن صاحب هذا القدر
من الرحمة لا بد أن يكون له أكبر حظ من القوة المادية فضلاً عن القوة المعنوية
وعدلاً ينصف الناس من نفسه ، ويسوى في القضاء بينه وبين خصمه مهما صغر
هذا الخصم ؛ وأهم من ذلك كله أو أدعى إلى الإعجاب من ذلك كله ، أنه كان رجلاً
صادق الوعد ، شديد المحافظة على العهد ، يحترم في سبيل هذا العهد عدوه ،
ويتعلم هذا العدو فيما يتعلمه منه أن الصدق كياسة ، والأمانة خير سياسة ، وأن
الشجاعة كلها في أن تلقى عدوك أقوى ما يكون استعداداً للقاء وأن من الجبن
والدناءة أن تأخذه على غرة أو تقطعه من وراء ، ذلك أن آية الرجل الشجاع
هي أنه لا يفرح لمنازلة عدو يكون أضعف منه . . !

كذلك كان صلاح الدين مثلاً أعلى للمسلمين ، وخصماً شريفاً للصليبيين
وكذلك كانت عظمتة الخلقية والحربية التي بهرت أعين الناس في الشرق والغرب
جميعاً ؛ أما المسلمون فكانوا يتغنون بها ، وأما الأوروبيون فكانوا يكبرونها
حتى لقد شغلت هذه الشخصية الفذة ، أذهان النساء المسيحيات في أوروبا ، فذهبن
يحببنها ، وطفقن يحاربن بها ، واتخذ الأدب الأوروبي من أحلامهن مادة غنى بها ،
وتلذذ الناس بقراءتها طوال العصر الوسيط .

توحيد

هتف بالسلطان هاتف الحج ، وتاقت نفسه الكريمة إلى أداء هذا الفرض وأراد أن ينتهر فرصة الصلح الذي عقده منذ حين ليقوم هو بأداء هذه الفريضة من فرائض الدين . وبينما هو يتهياً لهذا القصد ، وبينما هو يهيم في نوع من الشعور كأنه الوجد ، إذا بصديقه القاضي الفاضل يدخل عليه ويقول : أرى المولى يفكر في أمر .

قال السلطان : نعم أفكر في الحج وزيارة الرسول ، وأود أن يكون لي من الحظ ما كان لك بالأمس يا عبد الرحيم ، فقد كتبت إلى في الحج ، وقلت إنها حاجة الدنيا والآخرة وأنشدت :

متى يأتي هذا الموت لا يلف حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

قال الفاضل : نعم يا مولاي ، وكتبت أنت على رأس الرقعة التي أذنت لي غيبها بالحج قولك : « على خيرة الله . ياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً » .

قال السلطان : « منذ يومئذ يا عبد الرحيم وهذه الرغبة تتحرك في نفسي ، ويدق لها قلبي ، وأتربص الوقت الذي يسمح بأداء هذا الفرض . وها هي الفرصة قد سنحت بأبرام الصلح » .

قال الفاضل : « الرأي عندي الآن ألا يفكر المولى في ذلك ، فليس الوقت ملائماً له » .

قال السلطان : « كيف ونحن في هدنة؟ والحج لون من ألوان الجهاد ، والنية قد صحت عندي على أدائه » .

أول الفاضل: أليس ما فيه المولى جهاداً لأجل الدين؟ أليس ما يشغل به
أسمى وأعظم نفعاً للمسلمين؟ أليس يجاهد الصليبيين الذين ودوا لو غفل عنهم
فيميلوا عليه ميلة واحدة؟ .

قال السلطان: «ولكننا في صلح، والرغبة عندي ملحة في الحج» .

قال الفاضل: «ما يفتأ المولى يثني بوعودهم!! هبهم يا مولاي نقضوا العهد
وانتهزوا فرصة غيبتك في الحج. ألا — لا يأسفن المولى على زمان ينقضي وهو
عطل من هذه الفريضة، فبحسبه النية الصالحة في أدائها، فالله سبحانه لا يسأل
الفاعل عن تمام فعله، ولكن يسأل عن نيته في تمام هذا الفعل. وإذا كان المولى
أخذاً في أسباب الجهاد، فهو في طاعة هي أجل من سائر الطاعات» .

قال السلطان: «برغمي ألا أقوم بأداء هذه الفريضة. ومن يدري لعنا
تؤديها في قابل. فدعنا من ذلك الآن وقم بنا نغم حياة الشيخ الامام أبي طاهر
ابن عوف بالاسكندرية، فقد سمعت ثناء عاتراً على هذا الشيخ، وعلمت أنه
الآن يشتغل بقراءة الموطأ للمالك. فلنذهب اليه غداً وليذهب معنا أولادنا جميعاً
لسماعه والاستفادة منه» .

قال الفاضل: أسعد الله المولى بهذه الرحلة الكريمة وأثابه الله عليها. والله في
الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماء، فما منهما إلا أعز محجل» .

وهما في هذا الحديث، إذ أتى من أخبرهما بموت الملك الصالح إسماعيل بن
نور الدين — مات ولم يبلغ بعد العشرين من عمره، وبأن الأمراء في نزاع
شديد على ملكه: كل يريد أن ينتهز هذه الفرصة ويضع يده على قطعة من هذا
الملك. فزن السلطان لهذه الأخبار ورأى في موت الفتى وتنازع الأمراء من
بعده حنة جديدة من المحن التي لا بد له من التغلب عليها قبل أن يفكر جدياً في
محاربة الفرنج .

قال الفاضل : « لا يحزنك ذلك أيها المولى أطل الله بقاءك ، وجعل ملك ، هذا الفتى بعض إقطاعك ، حتى تستطيع جمع كلمة المسلمين ، ومحاربة القوم الظالمين . والله أعلم حيث يضع رسالته » .

ومضت أيام تأهب السلطان في أثنائها للرحيل ، ثم خرج من مصر في موكب ثقیل . اشترك فيه الجند والشعب على اختلاف طبقاته . وبينما القوم في أفراحهم ، والسلطان يشاطرهم هذه الأفراح ، إذ بأحد المربين لأولاده أخرج رأسه من خيمته وقال :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبضت نفس السلطان ، وخمد نشاطه ونشاط صديقه القاضي الفاضل . وكأن المؤدب نطق بما هو كائن في الغيب ، لأن السلطان لم يعد بعدها إلى مصر فقد تركها وغاب بالشام ليقضى الأعوام الطويلة الباقية له من حياته في جهاد طويل يوحد به كلمة المسلمين ويجمع به شملهم قبل أن يواجه بهم العدو .

ثم وصل السلطان إلى دمشق ، وأشار عليه أصحابه بالإغارة على حلب ، فأبى عليهم ذلك بحجة أن الهدنة التي بينه وبينهم لما تنقض مدتها ، ولا يليق بشرفه هو أن يغير عليهم قبل انقضاء مدتها .

قال له أصحابه : « فانهم قد هادنوا الفرنج ، ومالئوا عليك شيخ الجبل — زعيم الحشيشة — ليأخذوك على حين غرة . فأدھمهم قبل أن يدھموك ، وأشغلمهم قبل أن يشغلوك ، وأفسد عليهم خطتهم قبل أن يفسدوا عليك خطتك » . . .

فما ازداد السلطان إلا إلحاحاً في إباطه واستمساكاً بوفائه ، وقال لأصحابه : « إني لأستحي من الله أن يراني ناقضاً للعهد ، وإني لأستحي من نفسي أن أكون كاذب الوعد ، وما أنصر إلا من عند الله » .

م مضى أجل الصلح ، وأصبح السلطان في حل من قتال القوم ، فرى أ قبل
ذلك أن يبدأ بمكاتبة ملوك الاسلام جميعا بالوفود عليه ، فمن جاء منهم مستسلماً
سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفر . فوفد
عليه من رسل الملوك من قبلوا الدخول في دعوته ، ورفض منهم من أبى الدخول
في طاعته . ثم ذهب السلطان بنفسه إلى بعض مدن الشام ففتحها ، ثم اتجهت
همته لأخذ (حلب) فأخذها . ولم كان سرور الرجل عظيمًا بفتح (حلب)
ذلك بأنها البلد الذي سبب له من التعب ما لا يقل عما سببه له الفرنج . فلم يكذب
السلطان يظفر بها حتى علا قلعة من قلاعها ، وكانما أتاها بها الهاتف الذي يختلف
على آحاد من الناس — هم الرسل ومن هم في منزلة الرسل — فيدعوهم بدعوة الله ،
ويعدهم بالنصر من عند الله ، ويهيئهم لأمر من الأمور التي أَرادها الله ، فيرى
هؤلاء أنفسهم مدفوعين إلى تنفيذ هذه الإرادة الإلهية . فذلك معنى قول السلطان
وهو بأعلى هذا المكان :

و الله ما سرني فتح مدينة كما سرني فتح هذه المدينة . الآن تبينت أن أملك
البلاد . والآن تبينت أني أ كسح الفرنج . !
ونزل السلطان من القلعة فوجد الناس بالمدينة فرحين مسرورين . وفي هذه
اللحظة التي كان يشهد فيها سرورهم أتاها نبأ وفاة أخيه الأصغر (تاج الملوك بوري)
فحزن عليه كل الحزن ، وشق عليه في الوقت نفسه أن يكدر من صفاء القوم ،
فأنتحى ناحية أخذ يبكي فيها على أخيه ، وأمر أصحابه ألا يعلنوا موته حتى يفرغ
المسلمون لسرورهم . وذلك حتى أقبل على السلطان وفد من شعراء مصر وفيهم
القاضي السعيد بن سناء الملك ، فوقف يهنئ السلطان بقصيدة أتى في أولها :
بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
ومنها في وصف قلعة حلب وذكر تمنعها :

جلسة النجم في أعلى مراتبه وطالما غاب عنها وهي لم تغب

وما نعتيه كمعشوق تمنعه أشهى من الشهد أو أحلى من الضرب
فتح الفتوح بلامين وصاحبه ملك الملوك ومولاها بلا كذب
وكان انتصار السلطان على (حلب) وهى الوكر الأول لبית نور الدين
بشيرا بانتصاره على (الموصل) وهى الوكر الثانى لهذا البيت الأتابكى العظيم . إذ
كان المواصلة كالحلمين من أعداء الملك الناصر صلاح الدين . وأتى الرجل لحصارهم
فأخذوا يفاوضونه فى اعفائهم ، وسلكوا فى ذلك طرقاً شتى : فمرة يبعثون اليه
بنساء من بيت نور الدين يشفعن عنده فى تركهم آمنين بالمدينة ، فيكرهن
صلاح الدين ويلقاهن لقاء جميلاً ويعتذر ليهن فى لطف ورفق . وأخرى يسمعون
بمرضه ، ويعلمون أن المرض يرقق من مشاعره ويرهف من حسه ، وأنه فى المرض
ألطف منه فى الصحة بكثير ، فيبعثون اليه برجل عظيم من فقهاءهم ، وسياسى
أريب من أخطر ساستهم — هو بهاء الدين بن شدداد — وكان منهم يومئذ
بمنزلة توشك أن تكون كمنزلة القاضى الفاضل من السلطان نفسه . فيأتى هذا
الفقيه الجليل على رأس وفد كبير لمفاوضة صلاح الدين ، فيكرم السلطان وفادته
ويعرض عليه مكاناً رفيعاً فى دولته ، فيأبى الفقيه ذلك بحجة أنه مندوب عن
صاحبه أمير الموصل ، فيوافقه السلطان على ذلك ويقره عليه . ثم لا يجد أعضاء
الوفد الموصلى بداً من توقيع شروط الصلح ، وهى شروط أملاها عليهم السلطان .
وبها أصبح سيداً أكبر على الجزء الشمالى كله من الإمبراطورية الاسلامية .
ثم اتجه السلطان الى الاجزاء الجنوبية من هذه الإمبراطورية ولم يكن منها
خارجا عن طاعته غير أقليم واحد كان يفصل مصر عن الشام وهو اقليم (الكرك)
وأمره أرناط . وفى ذلك المكان اجتمعت عساكر الإسلام ، ودافع الفرنج عن
هذه المنطقة دفاعاً لم يغنى شيئاً أمام جموع المسلمين الذين فتحوا بلادهم ، وبلاداً
غير بلادهم ، وبذلك أصبح السلطان سيداً أكبر على الجزء الجنوبى كله من
الأراضى الاسلامية .

وجلس السلطان يستريح ، فأتى الشعراء لتهنئته وفيهم الشاعر المصري الذى
مر ذكره وهو القاضى السعيد ابن سناء الملك . فأئيد السلطان قصيدة وصف
فيها (الكرك) بأنها عوقبت بالعقوبة التى نص عليها القرآن الكريم وهى عقوبة
الرجم بالحجارة ، لأنها بلدة مسلمة رضىت أن تكون تحت رجل غير مسلم ، قال :

هى الكرك الشكلى بأولادها انتهت عن النسل مما جرعت من الشكلى
غدا بعلها (الإيرنس) (١) يلعن عرسه بها وهى لاتنفك من لعنة البعل
وقد رجمتها المنجنيقات إذ زنت هناك بشيخ كافر جاهل رذل

ثم لم يمض زمن طويل على هذه الفتوح ، حتى وصل إلى السلطان نبأ وفاة
صاحب (أرمينية) . مات ولم يترك بعده ولداً ولا ذاق رابة ، فكتب أهل
البلاد إلى السلطان يخبرونه لها . فما أسرع ماخف السلطان لأخذها ، ثم ما أسرع
ما كتب للخليفة فى بغداد يطلب اليه تقليداً عاماً بها وبالموصل وحلب وديار
بكر . فجاءه التقليد من الخليفة بالموافقة على كل ذلك .

ونظر السلطان فإذا ما-كه ممتد من برقة وماحولها من ناحية الغرب ، ومن
اليمين وبلاد النوبة من ناحية الجنوب ، ومن ديار بكر والجزيرة وأرمينية من
ناحيتي الشمال والشرق . ونظر أيضاً فإذا هو قد فرغ من جميع أعدائه بالشام ،
وإذا هو وحده فى قبضة يده جميع بلاد الإسلام ، وإذا الوقت قد حان ليحصل
لنفسه ودينه وشرفه وشرف المسلمين معه فى مشارق الأرض ومغاربها على أمل
طال فى انتظاره رجائهم ، وتحرق للظفر به نفوسهم ، ومن أجله كان التفاهم
حول أبطالهم وزعمائهم من لدن عماد الدين وابنه نور الدين إلى أن أتى صلاح الدين ،
وهو البطل الذى شرفه القدر بذلك الظفر الذى لا يعرف التاريخ الإسلامى ،
منذ الفتوح الإسلامية الأولى ، أعلى شأنأ ولا أجد ذكراً ولا أعظم أثراً منه .

(١) يريد أرناط وهو من يعنيه فى البيت الثالث

قلب

لم يكذب شيع عن صلاح الدين أنه هزم جموع الصليبيين في (حطين) .
وأنه في الطريق إلى القدس ، حتى قصده العلماء والفضلاء والكتاب والشعراء
والمتصوفة والوجوه في مصر وغير مصر ، بحيث لم يتخلف معروف عن
الحضور ليشهد بنفسه موطناً قيل فيه يومئذ ، ان الايمان كله برز للشرك كله .

والسلطان في خيمته ذات صباح ، إذ برسالة ترد اليه من سيدة مسيحية —
هي زوج صاحب طبرية — عرفت من أنباء حطين ما جعلها تؤمن بأنها واقعة
في أسر صلاح الدين ، ما لم تطلب اليه هو أن يؤمنها . فلما قرأ السلطان رسالتها ،
بعث اليها من يطمنها ، فخرجت السيدة من قلعتها ، وأبلغها الرسول ما منها معزة
مكرمة . ثم ذهب السلطان بنفسه إلى هذه القلعة فتسلمها ، ثم رأى أن يصير بجيشه
إلى عكا فصار اليها وحاصرها ، غير أن أهلها رأوا أن يطلبوا اليه الأمان ، فغيرهم
السلطان يومئذ بين اثنتين : فاما الإقامة في أما كنهم على أن يدفعوا الجزية التي
يفرضها عليهم واما أن يرحلوا عن بلدهم ليدخلها السلطان ، فاختراروا الرحيل ،
ودخل المسلمون البلد بين تكبير وتهليل ، وصلوا صلاة الجمعة في مسجد كان الفرنج
قد اتخذوه كنيسة لهم .

ومنذ ذلك اليوم وحصون الفرنج تقع تباعا في يد صلاح الدين ، وينفرط
عقدها حبات يتلقطها وينين بها تاجه العظيم ، ويعود إلى مرج عكا حيث يدبر
الخطط التي يسير عليها في هذه الحرب .

ودخل عليه القاضي الفاضل ومعه القاضي بهاء الدين بن شداد فيمن دخلا

عليه ذات يوم . فكرر الجميع تهانيم للسلطان ، وخاض الجميع في حديث معه عن الحرب وسياسته والحرب ، وآخر في الجهاد وفضائل الجهاد . أما ابن شداد فقد نفذ إلى قلب السلطان يومئذ عن هذا الطريق الأخير . فقال :

« يامولانا . هجرت في محبة الجهاد في سبيل الله أهلك وولدك ووطنك وسكنك ، وقنعت من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب الرياح بها ميمنه وميسرة و... »

قال القاضي الفاضل « ولقد وقعت عليه الخيمة في الليلة الماضية وكانت ليلة ريحية قاسية ، ونحن هنا على مرج عكا ، فلم يكن — وقاه الله تعالى السوء — في البرج لقتلته ، ثم لا يزيد ذلك كله إلا رغبه في الجهاد ومحبة لأسبابه وصبراً على متاعبه . »

قال السلطان « كل ميسر لما خلق له ، بارك الله فيكما أيها القاضيان ، كما في وقفه معي على الساحل ، نستجم بها بعد كد ، ونستروح فيها بعد تعب ؟ »

فذهب السلطان تجاه البحر ، ووقف الفاضل عن يمينه ، وابن شداد عن يساره ، وسبح الثلاثة في تأملاتهم . وغرقوا في أفكارهم . حكى ابن شداد عن نفسه قال « وكانت الرياح شديدة والبحر هائجا ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل إلى أنه لو قال لي السلطان : إن جزت في البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستخففت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم ، واستحسننت رأي من لا يقبل سباهه راكب البحر . وهذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شهدته من حركة البحر ، في موج الجبال كما قال الله تعالى في كتابه . فبينما أنا في ذلك اذ التفت السلطان إلينا وقال : « أيها القاضيان — أما احكي لكا شيئاً في نفسي ؟ »

قلنا « قل أيها المولى » .

قال « انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره ، وتعقبت الفرنج فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ! » فوقع كلام السلطان وقعا غريباً من نفس القاضي بن شداد ، حيث ناقض ما كان يدور في خلد . واتجه للسلطان وقال :
ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى منه ثقة في نصره
دين الله ! »

ثم استأذن السلطان في أن يحكي له ما كان خطر له فحكاه له ، فضحك السلطان وضحك معه القاضي الفاضل ، واستمرا في ضحكهما وقتاً طويلاً حتى قطع ابن شداد عليهما هذا الضحك وقال : « من أجل ذلك أيها السلطان ، جمعت لك كتاباً في الجهاد : أتيت فيه بأدابه ، وذكرت فيه كل آية وردت في ثوابه ، وكل حديث روى في هذا المعنى . »

قال السلطان في لطفة غريبة « احق ما يقول القاضي ؟ على اذن هذا الكتاب . فانك ان أردت أن تتقرب الينا ، وان تكون أثيراً لدينا ، فاطلع علينا بهذا الكتاب الذي جمعته ، فلعلنا نقرأ فيه قبل أن نرحل غداً إلى عسقلان ! »

قال القاضي الفاضل : « نعم عسقلان . فلم يبق علينا غيرها وغير مدينة صور . وافتح عسقلان نستطيع يا مولاي أن نصل الى باب القدس . وافتح مدينة صور نستطيع كذلك أن نظهر البلاد الاسلامية كلها من هذا الرجس . »

قال السلطان « علينا إذن بعسقلان ، فاذا فرغنا منها شغلنا الجند بعدها ببلاد أخرى يسهل عليهم فتحها ، فاذا أسكرهم الفوز بفتحها ، فانا نوجههم بعدها الى مدينة صور » قال القاضي الفاضل « مولاي يركب خطأ بترك صور طول هذه المدة . فانه ان تركها ، اجتمعت قلوب الفرنج بها ، وتكونت لهم بالمدينة

وحدة ضيقة لها خطرهما . فليأخذ المولى حذره من هذه الناحية ! » قال السلطان صدقت يا عبد الرحيم . ولكن ما الحيلة في ذلك والجند كما ترى أنهمكم التعب أخذهم النصب . والخييل قد تعبت كذلك من عرك اللحم .

قال القاضي الفاضل « المولى وما يراه في ذلك »

وهما في هذا الحديث إذ أقبل عليهما من أخبر أن الفرنج يشتغلون في صور بتجديد أسوارها واقامة أبراجها وحفر خندق حولها ، وأنهم يعملون في ذلك مهمة لا تعرف الكلل ، وأن الذى يقودهم في هذه الحركة الخطيرة أمير مسيحي قدم عليهم من القسطنطينية ، واسم هذا الأمير كفراد .

قال السلطان الملك الناصر « هذا كلامك عبد الرحيم »

قال القاضي الفاضل « ومع ذلك فإن لهذا الأمير الذى قدم عليهما ابا شيخنا هو أسير عندنا بدمشق . فمر من يأتى به ، وأعرض على هذا الأمير أن تفك أسريه ان هو كف عن العمل في إقامة السور » فأتى السلطان بالأسير الشيخ وراود به كفراد أن يفك أسره انه هو عاد عن قصده . ولكن الأمير المسيحي رفع الصليب في وجه السلطان وقال :

« بحق المسيح ، وحق الصليب ، لا نزلت عن حجر واحد في هذا السور . أما أى هذا فقد بلغ من العمر أرذله فحسبه ما عاش . فإن شاء السلطان قتله ، وإن شاء أطلقه » .

فلما ينس السلطان منه تركه وعاد الى عسقلان واستمر على حصارها أربعة عشر يوما تمكن في نهايتها من أن يستولى عليها ، وبذلك انفتح الطريق أمامه الى القدس . !

هنا طافت بقلب هذا القائد العظيم ذكريات قديمة كريمة عليه وعلى المسلمين . كان من أجلها في ذلك الوقت ذكرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

فهو الفاتح الأول للقدس ، وصالح الدين بن أيوب هو الفاتح الثاني له .
وكان جلال هذه الذكرى قد وقف في أول الأمر سداً منيعاً يحول بين
السلطان وبين هجومها عليه لأخذها دفعة واحدة . فبعث إلى أهله يقول لهم :

« اعلموا أننا نحن المسلمين نقدر هذا البلد كما تقدسون ، ولستنا نرغب في
أن نتعرض له أو لأهله بسوء — فإن شئتم سالمتم فسلمتم ، والا فبرغمي أن
أحاربكم في هذه الأرض المباركة » . وتوالت الرسائل بين الفريقين . غير أن
الفرنج كبر عليهم التسليم فتحرك نحوهم السلطان بجيشه ، وطاف حول أسوارهم
خمسة أيام كاملة وصل في نهايتها إلى الجهة التي اقتحم منها البلد . فدهمهم في داخل
مدينتهم « وهم يرون أن بذل نفوسهم وأموالهم وأولادهم بعض ما يجب عليهم
لحفظها » . ولما استيقن الفرنج الهلكة إنهم مضوا في المقاومة استقر رأيهم على
طلب الصلح ، واختاروا للمفاوضة عنهم باليان وهو صاحب الرملة ، أو هو
الرجل الذي أطلقته السلطان يوم حطين على عدة منه وعدها إياه ، فلما ابتعد عن
السلطان خفر بعهدته ونسى وعده ، ومع هذا فقد لقيه السلطان أحسن لقاء .

ولما سأله الرجل عن شروط الصلح أجابه السلطان بقوله : هل لمدينة وقعت
في الأسر أن تطلب شرطاً ؟ فقال باليان :

« أيها السلطان . اعلم أن في هذه المدينة ما لا تعلمه أنت ولا قومك . يكرهون
الموت ويحبون الحياة . فإذا لم يجدوا من الموت بدأ قتلوا أبناءهم ونساءهم ،
وحرقوا أموالهم ومتاعهم ، وهان عليهم ذلك عن أن تغنموا منهم ديناراً
أو درهماً .

وأخيراً أسفرت هذه المفاوضة التي دخل فيها السلطان على أن يعرض على
بليان أن يسمح لهم بالرحيل عن المدينة في مدة لا تزيد على أربعين يوماً ، وعلى

أن يدفع الرجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، والمرأة خمسة والولد دينارين
والأفوه أسير .

وها هو السلطان الكريم يأبى عليه قلبه العظيم أن يشهد بنفسه القوم
يغادرون بلادهم ، ويودعون ديارهم ، ويتبعون الأماكن المقدسة توديعاً لا لقاء
بعده . فعل السلطان ذلك كيلاً يؤذى كرامتهم أو يجرح عزتهم أو يروا فيه شامتاً
في مصيبتهم التي حلت بهم بترك القدس .

وهذا أخوه الملك العادل يطلب منه اعفاء سبعة آلاف من العجزة والمساكين
فيستقدم السلطان باعقائهم واعفاء عشرة آلاف أخرى من فقراء المسيحيين . بل
أن من المؤرخين الأوروبيين من قال :

« إن السلطان قضى يوماً كاملاً من مطلع الشمس إلى مغربها وعلى بابها من
ينادى : هل من فقير فنأويه ، هل من عاجز فنعفيه من فدية يؤوده دفعها ويعجزه
الحصول عليها » .

وهذا فوج كبير من الفرنج ، منهم من يحمل أبويه الضعيفين ، ومنهم من
يحمل أخوته المرضى أو المصابين ، فيبكي السلطان بكاء الحزين ويأمر أن ترد
لهم الفدية ، وأن يؤتى بالدواب لهم ليركبوا عليها هم وهؤلاء العجزة .

ثم هذه امرأة قد أسدت وبدت عليها أمارات النبل والتدين ، تمشي الهوينى
وتستعين على السير بنخدم يرعونها ويحمون لها المال الذي تملكه في هذا البلد
الغريب . يراها السلطان من بعيد فيأمر بمن يدركها ويعرض عليها خدمات
السلطان الذي تطوع بها .

ثم ذلك هو البطريق الكبير ، وهو خارج بمال كثير ، لم ينفق منه شيئاً في
افتداء يتيم أو مسكين أو فقير . يراه المسلمون فيشيرون على السلطان بأخذ ماله
والانتفاع به فيما يعود بالخير على جيوش الإسلامية . فيقول السلطان لهم .

« لا — ما كان لنا من حق في ماله الا العشرة الدنانير ، وغيرى من يغمم المال عن طريق الغدر . دعوه يخرج به » . وللمؤرخين الأوروبيين تعليق على هذا الموقف اذ يقولون « هكذا وصل الأمر بالفرنج الى حد أن سلطاناً مسلماً يلقى درساً في المروءة على راهب نصرانى ! »

وخرج المسيحيون الهاربون من القدس والتجأ بعضهم إلى بلاد أخرى بعيدة كانتاكية وطرابلس ، فطردهم منها أمراؤها ، وأغلقوا دونهم أبوابها ، ثم لم يكفهم ذلك حتى بعثوا وراءهم بمن نههم وأخذ متاعهم ، فقام هؤلاء على وجوههم وسط الصحراء « حتى لقد اضطرت سيدة معهم أن تلقى بولدها في اليم . وهى لا تنفك تلعن هؤلاء المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها وينقذوها وينقذوا معها ابنها » .

حطَّين

أسطورة من الاساطير الفرنسية حول موضوع الحروب الصليبية بعنوان (أغاني شاعر ريمس) : « أن سيدة مسيحية تدعى (سيبلا) Sybylla توجت زوجها ملكاً على بيت المقدس . والملك على تلك الجهة من بلاد الصليبيين يجب أن يعترف به ملكاً في المشرق على جميع الأمراء المسيحيين . غير أن هذا العمل لم يصادف هوى من الأمراء الأقدمين في فلسطين ، فأتى أحدهم وهو (ريموند) Raymond صاحب طرابلس واجتمع بكثيرين منهم ودبر الجميع أمرهم بلبيل .

واتفق الأمراء المتآمرون على أن يجتمعوا لذلك سرّاً بصلاح الدين ، فاجتمعوا به واقترحوا عليه أن يسلبوا البلاد اليه ، بحجة أن ملكهم الجديد رجل مدخول القلب سيء النية ، وأنه فوق هذا كله ضعيف لا يستطيع المحافظة على بيت المقدس .

وزعم لنا الشاعر الفرنسي الذي ألف هذه الأساطير أن السلطان رجب بأولئك الأمراء الخونة الثائرين ، ووعدهم جوائز سميئة يستحقونها متى تم له ولهم نجاح هذه المؤامرة . . غير أن أولئك المتآمرين رأوا ألا يغادروا السلطان حتى تستوثقوا من مساعدته لهم فيما اجتمعوا له ، فسأله زعيمهم ريموند قائلًا له : قل لنا أيها السلطان العظيم : ما الضمان الذي تحتاج اليه حتى تثق بهذا الحلف الذي عقدناه بيننا الآن ؟ « قال صلاح الدين : والذى نفسى ونفس محمد بيده انك لتقول الحق . فعلينا جميعاً أن نقسم بديانتنا ونؤكد بوثقتنا بأن يخرج كل منا نفسه ويسقى الآخر شيئاً من دمه . »

ففعّل الجميع ذلك وتمت بهذا خطة المؤامرة .

فما كانت الحرب ، ووقعت الموقعة الكبرى بين الفريقين ، صاح السلطان بأعلى صوته وسط المعركة وقال : أى أمير طرابلس . اليوم تبر بقسمك !
فأسقط الأمير الخائن رايته على الفور ، وفعل الخونة الآخرون من المتآمرين مثله أيضاً ، ودارت الدائرة على الصليب ، وسبق ملك القدس ومعه فرسانه وأبطال جيشه اسرى الى خيمة صلاح الدين

قال الشاعر الفرنسى : غير أن السلطان العظيم عاد فاحتقر الخيانة والخائنين ، وأثرت في نفسه الحال السيئة التى وصل اليها ملك بيت المقدس . ورأى فيه رجلاً شجاعاً خذله قومه وغدرت به عشيرته ، فأمر بإطلاق سراحه وسراح عشرين رجلاً من خيرة فرسانه مجهزين جميعاً بالعدد والذخيرة . وردهم جميعاً إلى الساحل .
أما ريموند وأتباعه من أعضاء هذه المؤامرة فقد أسرهم صلاح الدين وعذبهم عقاباً لهم على فعلتهم ، وأراد أن يلقى عليهم بذلك درساً قاسياً في أمانة الجندى !
لهذه الأسطورة الفرنسية أصل في تاريخ الحروب الصليبية . فقد توفى الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وأقيم مكانه بلدوين الخامس هو ابن هذه السيدة الكبيرة التى تدعى (سيبلا) . وكان هذا الملك الأخير طفلاً فكفله ريموند صاحب طرابلس ، وأبرم باسمه مع السلطان صلحاً مدته أربعة أعوام . ثم مات الملك الغلام وبقي ريموند مكانه حتى اقترنت (سيبلا) بزواج آخر توجته ملكاً على القدس ، وكانت حاشية هذا الامير لا تحب ريموند ، فتركهم وعاد إلى طرابلس . واستمرت العداوة بينه وبين ملك القدس ، وزادت هوة الخلاف بينهما ، حتى لقد استعان ريموند على غريمه بصلاح الدين ، فرحب السلطان بذلك ، وان كان قد رفض محاربة الفرنج معه حتى ينقضى أمد الصلح .

واجتمع أمراء الفرنج برياسة ملك القدس . وكان فيهم أخو الملك نفسه وهو (ارناط) صاحب الكرك . وبسط الامراء الموقف فكان من رأى الملك أنه

لا تنبغى محاربة السلطان قبل انتهاء الهدنة . وكان من رأى ارناط انه لا بد من الحرب ومن فسخ الهدنة . ووقع الخلاف بينهم فى رأى على هذا النحو كل ذلك والسلطان نفسه لا يفكر فى الحرب ، أو ينتظر انتهاء الصلح بهارغ الصبر . وبقي على حالته هذه حتى نما اليه أن ارناط عبث بالصلح وانتوى الغدر ، وظهر هذا الغدر منه حين مرت بالكرك قافلة من قوافل المسلمين عائدة من الحج ، فانقض على رجالها وحبس كثيراً من نساءها ، واستولى على جميع أموالها . ثم لم يكنه كل ذلك حتى أخذ يطعن المسلمين فى دينهم ، ويصيدهم فى موضع الكرامة والعزة من نفوسهم فقال لهم : أين محمدكم . أدعوه الآن ليفك اسركم ، ويخلصكم من هذه اليد : ثم اتبع ذلك بما شاءت له أخلاقه من ألفاظ الهز والسخرية . وبلغ هذا كله مسامع السلطان ، فثارت حميته ، وهاج هائج ، وغلا مرجل دمه ، وآلى على نفسه يومئذ لئن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده . !

ثم رجع السلطان إلى جيشه ينظمه ، وإلى جنده يحبسهم ، وكان بما قاله يومئذ للجند : غداً تدافعون عن الدين ، وغداً تنتقمون معى لاشرف المرسلين ، وغداً تكونون ممن قال الله تعالى فيهم « فأناهم حسن ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة :

ثم ما كاد الصلح ينتهى أمده حتى أعلن السلطان كلمة الجهاد ونادى بالنفير العام . وكان الفصل صيفاً والشمس محرقة وذلك فى يوم من أيام يوليو التى لا قبل للفرنج باحتمال حرها الشديد . وكان من خطتهم — لسوء طالعهم — أن يبدأوا هم بالهجوم على بعض البلاد المجاورة التى فتحها صلاح الدين . وكان قصدهم من ذلك — كما أوحى لهم ارناط بذلك — أن يسبقوا المسلمين إلى الاستيلاء على العيون ، ليشربوا فى يوم حار كهذا ويظماً جيش المسلمين . فما كادوا يتقدمون بفرسانهم ، إلى البلاد التى أرادوا انقازها برماحهم ، حتى وجدوا المسلمين قد

أحرقوا هذه البلاد وحالوا بينهم وبين الماء ، فاشتد لذلك عطشهم ، وجفت إذاك
ألسنتهم ، وسلطت الشمس على رؤوسهم ، فكان حرها أشد على نفوسهم من
جيوش المسلمين ، وظلوا على حالتهم هذه حى أقبل الليل . !

كل ذلك وجيوش المسلمين فى الأما كن التى عينها لهم السلطان ، لم يأمرهم بعد
بالهجوم على العدو . فلما أصبح الصباح وتقدم النهار واحمات الشمس ، لم يشعر
المسلمون إلا وقطعة من جيش العدو بقيادة رايونند صاحب طرابلس ، قد فرت
من الميدان ، ونجت بنفسها من سيف السلطان ، وأتى رجل منهم إلى خيمته
يقول له :

« أيها السلطان العظيم ما الذى يدعوك الى التأخر فى الهجوم ؟ إنهض الآن
اليهم ، وانقض بجيوشك عليهم ، فانهم أصبحوا بحال من التعب والظما لا يأملون
معها فى النجاة »

فرحف السلطان بجيشه العظيم ، فتهقر الفرنج وانسحبوا الى تلال حطين —
وهى قرية صغيرة يقال ان عندها قبر النبي شعيب . وأرادوا نصب خيامهم فلم
يمكنهم المسلمون من ذلك . ثم بشىء من العسر غير قليل استطاعوا أن ينصبوا
للملك خيمة اجتمعوا حولها ورفعوا (صليب الصليوت) فوقها — وهو خشبة
زعموا أن المسيح صلب عليها ، فغلقوها لذلك بالذهب الاحمر ، وكللوها بالدر
والجوهر ، وجعلوها رايتم الكبرى فى ميادين الحرب .

ثم هجم المسلمون على خيمة الملك فاستبسل الفرنج فى الدفاع عنها . ثم مال بشوا
أن خارت قوتهم ، وتداعت خيمتهم ، وأسر مليكهم ، وسقط صليهم ، وكان
أخذ هذا الصليب أشق على نفوسهم من أسر الملك نفسه .

وحكى بعض من شهدوا هذه الموقعة أن الرجل الواحد من المسلمين كان
يستطيع بحمل خيمة أن يجر وراءه من الاسرى نيما وثلاثين — لا يمنعونه
ولا يقاومونه لشدة خذلانهم فى ذلك اليوم !

وما كاد هذا الظفر العظيم يتم لصالح الدين ، وكان ذلك ليلة السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة خمس مائة وثلاث وثمانين ، حتى انطلقت أصوات المسلمين بالدعاء والتهليل ، وتصايح الجنود اجمعون : الله اكبر ! الله اكبر ! : والناس مشغولون بتهليلهم وتكبيرهم ، والسلطان في سجوده ، غارق في دموعه ، ساج في مثل ما يسبح فيه المتصوفة في ساعة من ساعات غيبتهم عن العالم المادى .

وأفاق السلطان فاذا في أسره من رؤوس الصليبيين : ملك القدس وهو (جودفرى) زوج (سيليا) ، وأرنات وهو (رينولد) أخو الملك ، ورئيس الدواب ، ورئيس الاسبترية ، وصاحب الرملة ، وصاحب حصن جبيل ، وابن صاحب طبرية ، وكثيرون غيرهم من ملوك الفرنج وكبارهم وأصحاب الكلمة النافذة فيهم .

فأما زعماء الدواب والاسبترية ، وهما في رأى السلطان جرثومة الكفر في بلاد اسلامية ، فتمد اختار السلطان قتلها فقتلا من وقتها . وأنكر المؤرخون الاوروبيون على السلطان هذه الفعلة . ووصفوها في كتاباتهم بأنها (النقطة الوحيدة السوداء في تاريخ ناصع أبيض » .

وأما (ارنات) فقد أوقفه السلطان الى جانب أخيه الملك وكان اليوم حاراً ، والفرنجة أنفسهم قد فرحوا اذ وقعوا في أسر المسلمين حتى يمكنهم من الشرب . فأمر السلطان بقدح من شراب جلاب بثلج ، وأعطاه بيده إلى الملك فشرب منها ، ثم ناول الملك بعضها أخاه ارنات . فقال السلطان للترجمان :

« قل للملك : أنت الذى تسقى أخاك ، والا أنا ما سقيته » ! وكان على جميل عادة العرب وكريم طباعهم أن الاسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن على نفسه . فدل السلطان بكلمته هذه على أنه أمن الملك إذ سقاه ، ولكنه لم يؤمن

أخاه أرناط إذ لم يسقه . ثم أمر السلطان الخدم فأقعدوا الملك في الدهليز ، ثم أمرهم فأتوا له (بارناط) فذكره السلطان بتلك العبارات التي سب فيها النبي وقال له : « هأنذا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » ثم عرض عليه الاسلام فلم يقبل . فسل السلطان سيفه وضربه به على كتفه فخله ، وتم عليه من حضر من الخدم ، ثم أخذ ورمى به على باب الخيمة . .

فلما رأى الملك أخاه على تلك الصورة المرعبة ، لم يشك في أنه يثنى به لساعته ، فاستحضره السلطان وطيب قلبه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . وأما هذا فانه جاوز حده ، وسب نبينا فنذرنا لأن أظفرنا الله به لنقتله ، فجري ما جرى . » وكان القاضي الفاضل غائبا عن وقعة (حطين) . فلما بلغته أخبارها كتب الى السلطان رسالة جاء فيها :

« كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس الى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها . وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه إنه الواحد ، جدد الله شكراً ، تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه ، فتد جزاه يوسف خيراً باخراجه من سجنه . . تك المكارم لاقعبان من ابن ، وذلك الفتح لاعمان والين ، وذلك السيف لاسيف ابن ذى وزن . وللأسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل . »

حصار

ظفرت أيها السلطان بالقدس فاعمل في عمارته واحفر خندقه واعمل فيه بيدك، وانقل الحجارة والتراب على كتفك، وليعمل معك أبنائك وأجنادك وقضاتك وولاتك، وعلماؤك وأمرؤك، ولتفرغ من خندقك على عجل، فإن أمامك أل تملك الساحل كله، وأن تفتح أمتنع حصن من حصونه وهو (عكا)، وذلك قبل أن يأتي أعداءك المدد من أوروبا فيومئذ قد لا تستطيع أن تملك الساحل ولا الحصن.

وصم السلطان على هذا الرأي واتجه نحو الساحل، وملك في طريقه حصوناً كثيرة أغنت فيها هيئته الشخصية عن قوته العسكرية، فكان لا يكاد يقف بنفسه أمام الحصن حتى يسلم له صاحبه فلا تطول المعركة.

وفي حصن من هذه الحصون التي كانت في الطريق، واسمه حصن (بززية) أسر السلطان صاحب الحصن ومع زوجته وبناته، وفيهن ابنة كانت عروساً قد حيل بينها وبين زوجها في الموقعة، فأمر السلطان من أتى له بهذا الزوج، وما أتى الليل إلا وكانت عروسه معه.

ثم وقف السلطان أمام حصن عكا، فقاتل الفرنج دونه أعنف قتال وأفظعه ولكنه مع ذلك سقط في يد السلطان لساعته، وكان المسلمون من جانبهم قد بذلوا فيه جهداً عظيماً، واستشهد في الموقعة أخ الفقيه عيسى الهكاري، فشبهه الناس وهو جالس يضحك والناس يعزونه، وهو ينكر عليهم ذلك ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء !!

وجلس السلطان بعد الموقعة في خيمته ، ومعه القاضي ابن شداد وإذا بامرأة من نساء الفرنج قد وقفت على خيمته ، وبكت بكاء شديداً وهي تمرغ وجهها في التراب وتستغيث ، فأمر السلطان من أتى بها ، وعرف من قصتها أنها فقدت في الليلة السابقة رضيعاً له من العمر ثلاثة أشهر . وكان ملوك الفرنج لما علموا بامرأها عرضوا عليها أن تذهب إلى السلطان بنفسها ، فأنته فرق قلبه لها ، ودمعت عيناه لمنظرها ، وأمر باحضار رضيعها ، فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده ودفع ثمنه ، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل ، وسلمه بيده إل أمه التي ضمته وأرضعته ، وبعد ساعة أمر لها بفرس فركبته ولحقت بعسكر الفرنج .

ثم ترك السلطان عكا بعد أن ولى عليها من قبله الأمير بهاء الدين قراقوش ، وترك معه نخبة صالحة من صفوة جنده ، وذهب هو لا متلاك بقية الساحل .

غير أن الفرنج المجتمعين وقتئذ في مدينة (صور) بدا لهم أن يتحدوا ويقوموا جميعاً بحصار (عكا) لا شيء إلا لإزعاجهم ريثما يأتيهم المدد من أوروبا بقيادة ملوكهم ، أوريثا ينجح القساوسة في إثارة هؤلاء وتحريكهم لتخليص القدس فتحرك الفرنج من (صور) ووقفوا تجاه (عكا) وضربوا عليها الحصار الشديد غير أن العجيب في حصارهم هذا أنه دام أكثر من عامين ذاق الفريقان فيهما صنوفا كثيرة من الويل ، .. وانتهى بهما الأمر أخيراً إلى نوع من الملل أو السأم ، ثم أدى بهما الملل والسأم إلى نوع من الصداقة كله عجب ، فكان الفريقان يتركان القتال ، ويفرغان أحياناً إلى اللهو والمزاح ، ثم لا يلبثان أن يعودا إلى القتال بعد ساعة كأن لم يمزحا من قبل .

وطالت معاشرة الفريقين على هذه الحال حتى قال بعض المقاتلة المسلمين لبعض المقاتلة المسيحيين على سبيل المداعبة والمزاح : إلى كم نتقاتل نحن الكبار وليس للصغار من هذا القتال حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا وصبيان منكم .

فرافق الفرنج على هذا اللهو . وخرج الصبية الأربعة ، واشتدت بينهم المصارعة
حتى وثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الفرنجيين ، فغذبه جذباً شديداً
وضرب به الأرض ، ثم قبض عليه أسيراً وضحك القوم . وانتهى الأمر بأن
اشترى بعض الفرنج أسيرهم بدينارين ، فأخذ الصبي المسلم الدينارين وأطلق
الفرنجي .

غير أن هذا المزاح الحلو أو المر كان أشبه شيء بضحك الرجل الذي أثقله
الهم أو الحزن فقد بلغ السأم والكدر ، والجهد والنصب ، من الفريقين حدّاً لم
يبلغه من قبل كل ذلك والمسلمون المحصورون بمكا تسوء حالهم يوماً بعد يوم ،
حتى أصبجوا ولاحيلة لهم إلا البريد يحملونه همهم ، ويبتونه حزنهم ، ويستغيثون
فيه بنجدة السلطان ومراحم السلطان ، والسلطان في خيمته يترأ أخبارهم والدمع
ينهمر من عينه ، والأسى يملأ قلبه ، والهم يهدم جسمه ، وأصحابه من حوله يعزونه
ويسلونه وهو لا يقبل السلو !

لقد أصبح على السلطان أن ينظم المراكب الضخمة تحمل القوات لهؤلاء
القوم الذين أشرفوا على الموت . كما أصبح عليه ألا يهمل إيفاد الرسل إليهم
لتقوية الروح المعنوية في نفوسهم ، حتى لا تحدّثهم بالتسليم للعدو . وذلك ماقد
فعله منذ ذلك اليوم .

فمرة يصل المسلمون في مراكبهم إلى عكا في زى الفرنج خدعة ، وأخرى
بقتل الفريقين من المسلمين والمسيحيين على الميرة فلا تصل إلى المدينة إلا عنوة
وفي ثالثة تعصف الرياح بالسفن الإسلامية فتغرق كلها بما تحمله من طعام لأولئك
المساكين المحصورين . ثم لم يكتف المسلمون بكل ذلك حتى تطوعت فرق منهم
لاجتياز البحر إلى المدينة سباحاً تحت سفوح السفن ، ليشهدوا بأنفسهم حال
أخوانهم المحصورين في هذه المدينة البائسة . وكان من أشجع هؤلاء العوامين
رجل منهم اسمه (العوام عيسى) .

ونظر المسلمون يوماً فاذا العدو قد صنع ثلاثة أبراج من حديد وخشب ،
وألبس الأبراج جلوداً منقوعة في الخل حتى لا تنفذ النار فيها بزعمه . وكان كل
برج منها من الضخامة كأنه الجبل ، وكان يسمع أكثر من خمسمائة نفر ، وكان
ذلك كله قد راع المسلمين واودع في قلوبهم الخوف والهلع . فجمع السلطان
علماءه وصناعه ، وعمل الجميع فكرهم في طريقة لاحتراق هذه الأبراج قبل أن
أن تقتحم البلد . وانهم لقي ذلك حتى أقبل عليهم فتى دمشقي قال انه اهتدى الى
طريقة ناجحة . فأمر السلطان بمن أحضر له ما أراد من المواد ، فطلبها الفتى
مع النفط وجعلها في قدور من نحاس ، ورمى بها برجاً فاحترق لساعته فابتهج
المسلمون وهللوا وغرهم الفرح . ثم رمى الفتى برجاً آخر فاشتعل فعلا تهلل
المسلمين وصياحهم ، ثم رمى البرج الثالث فالتهب ففشى الناس من السرور
ما أذهل عقولهم . وأقبل السلطان والناس معه على الفتى ، وأراد السلطان أن
يمنحه الجائزة التي يستحقها على هذا العمل فاعتذر عن قبولها وقال : يا مولاي أنا
إنما عملت شيئاً لله تعالى ولا أقبل الجزاء على عملي هذا من أحد غيره !

وطال أمد القتال حتى فكر بعض أمراء المسلمين في العودة الى بلادهم ،
واستأذنوا السلطان في ذلك فشق قولهم على نفسه حتى كادت نفسه تنكسر .
وانهم لقي ذلك واذا بالكرووس تدق من جانب المسلمين المحصورين بعكا ايذاناً
منهم بأن الفرنج هجموا عليهم اذ ذاك نادى السلطان بنفسه : يا للاسلام وعساكر
الاسلام !! فأخذت الحمية هولاء الأمراء فاستجابوا بعساكرهم لنداء السلطان
انقضوا بجمعهم على الفرنج حتى أزاحوهم عن أماكنهم ، وسلكوا طريقهم الى
المدينة فدخلها فريق منهم وعلى رأسهم السلطان نفسه . ثم أتى الليل فأخذ المسلمون
الى الراحة من عناء الحرب ، ولكن صنيعهم هذا كان خطأ منهم وتهاوناً في مقابلة
العدو الذي باكرهم في الغد ، وحمل عليهم حملة أفقدتهم ثمرة الانتصار الذي
أحرزوه أمس . فضاق بذلك صدر السلطان ، ونفذ صبره ، وغامر اليأس

قلبه . ثم ازداد هذا اليأس في قلبه لما سمعه من أنباء المسلمين المحصورين بعكا ، فقد وصلوا إلى الحال التي أحبوا معها الموت بعد إذ سامهم العدو خطة خسف ثارت لها نفوسهم واستشعروا فيها ذلة لم يألّفها الشرف الإسلامي .

رحمك الله هؤلاء القوم : العدو أمامهم ، والوباء الذي تفشى في المدينة يحصد أرواحهم ، وإلى هذين العاملين القاسيين ينضم عامل ثالث ربما كان أشدّ منهما قسوة هو عامل الجوع !

وتصل هذه الأنباء السيئة كلها إلى السلطان في مخيمه ، فيقف كالأرملة الشكلى ، يضغط على أنيابه ، ويضرب الأرض بأقدامه ، ثم يصيح صيحة يأس زلزل لها كل عضو من أعضائه ويقول :

اقتلاني ومالكا واقتلا مالكا معي !

صديق

ليس أشق على النفس التي تعودت الظفر من يوم تنفى فيه بالهزيمة والفشل ، ومع ذلك فالنفس العظيمة هي التي تنظر إلى الفشل على أنه كسر وينجبر ، وإذا انجبر العظم فقد عاد أشد صلابة وأقوى على احتمال المحن .

لقد حزن السلطان كثيرا على عكا ، ومع ذلك لم يكن حزنه هذا خاتمة الأحزان التي أتته بسبب عكا . وإذا كان ذلك ما قاساه منها والمحاصرون لها فرنج الشرق وحدهم ، فما عسى أن يقاسيه منها والمحاصرون لها هؤلاء ومعهم فرنج الغرب كلهم . وهذه جموعهم قد تدفقت سيولا عليه من أوروبا ، وانتظمت في حملة صليبية كبرى ، وزعمت أنها تستطيع تخليص بيت المقدس . ولكن هيات لها أن تفعل والبيت بطل يعرف كيف يذود عنه . . . !

وكان من الملوك الوافدين يومئذ على حصن عكا (فرديريك بارباروسا)
إمبراطور ألمانيا ، و (فيليب الثاني) ملك فرنسا ، و (ريشارد الأول) ملك
انجلترا :

تجمعتمو من كل صوب ووجهة على واحد - لازلتمو قرن واحد !!
وسارت الحملة من أوروبا ، ولكن حدث أن غرق جيش الإمبراطور
في الطريق ، ووصل إلى الشرق منه نفر قليل صحبوا جند العاهلين الآخرين الذين
وصلا بالجميع إلى عكا .

وهناك أمام عكا اصطفت أمم الصليب كلها قلبا وميمنة وميسرة ، ووقف
في القلب ريشارد وبين يديه الإنجيل محولا ومستورا بثوب أطلس يمسكه من

طرافه أربعة أنفس . ثم هجم الجميع هجمة صادقة على جيش السلطان فانكسر
وأصابه الوهن ، ودخل الصليبيون عكا ، وطلبوا من السلطان مالا وأسرى ، فبذل
لهم السلطان مالا وأسرى ، ذلك بأنهم وعدوه على هذا البذل ألا يقتلوا من عندهم
من جند المسلمين . ومع ذلك ظهرت خيانتهم ، وعادوا الى وحشيتهم التي تلطخت
بها سيرتهم ، وأقبلوا على ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين فقتلوهم قتلة شنيعة ، لم
يتحرك منهم قلب رجل ، ولا شعر ملوكهم بشناعة هذا العمل ، بل لهوا به كأنهم
في حفل للرقص أو الشرب . ثم أقبلوا جميعاً على لذتهم واستمتعوا ليلتهم بالطعام
والنساء اللاتي جلبنهم معهم لهذا الغرض .

وهكذا قدر للصليبيين مجتمعين أن يشفوا غليلهم من صلاح الدين ؛ فانصرفوا
عليه بجموعهم ولكنهم عرفوا بهذا الانتصار وحده قوة غريمهم ، وخبروا عن
كشبة شدة بأسه وقوة عزمه ، وعلموا أنهم لا قبلة لهم بالصبر على محاربه
لامتخلاص القدس .

أما السلطان نفسه فقد أسلم نفسه للهموم والأحزان ، وشغلت قلبه أمور
جسام ، لعل أيسرها هذه الهزيمة التي حلت به وبجيشه ، ولعل أخطرها تفكك
الروح المعنوية في جيشه ورغبة أمرائه في العودة الى بلادهم .

وفي ذلك الوقت كان القاضي الفاضل بالديار المصرية يربط السلطان أموره
ويجهز له عساكره ويعمر له أسطوله ؛ ويشغل بأعداد الميرة التي يحتاج اليها أهل
هذه المدينة البائسة وهي عكا . فلما بلغه ما حل بالسلطان ، وأيقن أن السلطان في
جزئه لا يأكل ولا يشرب ولا يقبل من أحد سلوا ، شعر بأن عليه واجبا نحو
هذا الرجل العظيم ، وهذا الواجب هو أن يقوم بتعزيزه وتسرية الهم عنه .

ومن لصلاح الدين في مثل هذا الظرف العصيب غير صديقه ومشيره القاضي
الفاضل ، يواسيه بقلمه ويندب عنه الحزن الذي أتلف نفسه وأضر بالاسلام

كله ، ويتف جهوده في ذلك الوقت لمعالجته حتى تعود اليه نفسه ويستأنف الجهد الذي يبذله لانقاذ الاسلام من هذا الوهن الذي رماه القدر به .

اذذاك دارت بين الرجلين مكاتبات ، كان السلطان يشكو فيها بثه وحزنه للقاضي الفاضل ، وكان القاضي الفاضل يبذل جهده في تقوية الرجل وردّه الى شيء من الثقة بأن الله معه .

ففي أحد هذه الكتب يقول القاضي للسلطان :

يامولانا... أليس الله أطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يختر ، ولم يسهل . ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه واعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحيه الا أنت ؟ هذا وفي الأرض من له بالنبوة قرابة ، ومن له بالمملكة وراثة ؛ ومن له في المال كثرة ، ومن له في العدد ثروة ، فأقدهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحجب الدنيا اليهم ، وبغضها اليك ، وصعبها عليهم . وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يديك ؛ وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

نعم وأخرى أهم من الأولى — انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ؛ وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ؛ ولا أستبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، لا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ؛ ولا عصا تسوقهم ؛ ولا سيف يزعجهم الى الداعى ساعين في أثر الساعى وهم من كل حذب ينسلون ومن كل بر وبجر يقبلون — كنت (١) يامولانا كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الاسلام للشرك هازم

(١) جواب لما

هذا — وليس لك من المسلمين كافة ساعد الا بدعوة، ولا مجاهد معك الا
 بلسانه، ولا خارج معك الا بهم، ولا خارج بين يديك الا بالأجرة، ولا قانع
 منك الا بزيارة. تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً ببيع: تدعوهم
 إلى الله، وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم النريضة، وكأنما تسألهم النافلة،
 وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم. والآراء تختلف
 بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك. فتأمل لم لا تتباعد عن المنازلة، وآخر
 لم لا نميل إلى المصالحة، ومتقدم على فائت ما كان فيه خطر، ومشير بمستقبل
 ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا كأن تركها تغليق المعاملة، وما كأنها
 طليعة الجيش ولا قفل الدار ولا خزانة الملك :

ولكن مولانا صحيفة وجهه كضوء شهاب القابض المتصور
 قليل التشكي للهيم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

... ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا أبقاه الله وجهه عن بشاشة. ولا
 صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا ترى منه ضجرة، ولا تسمع منه
 نهرة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، ولما لم يحدث
 استمرار النعم لمولانا — عز نصره — بطراً، فلا تحدث له ساعات الامتحان
 ضجراً. والمملوك يستحسن بيتي حاتم :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر
 فما زادنا بغياً على ذى قرابة غنانا — ولا أزرى بأحسابنا الفقر
 إلى آخر ما جاء في هذه الرسالة :

وفي أخرى من الرسائل التي بعث بها الفاضل أيضاً قوله :

... قيل للهلب : أيسرك الظفر فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز، ولا بد
 أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لأراد لحكمه . فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره

فلان يجزى القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجزى وهو ساخط موزور .
ومن شكا بته وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى واستغاث بقادر . ومن دعا ربه
دعاء خفيا استجاب الله له استجابة ظاهرة . فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية
عنا ، ولا يقطع الظهور التي لا تشد إلا به ، ولا يضيق الصدور التي لا تنفج
إلا منه . وما شرد الكرى وأطال على الأفكار ليل السرى الا ضائقة القوت
بعكا ، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر . فقد
علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا رب الدهر ، ولا ينفذ الأمر إلا
بصاحب الأمر :

قد قلت للرجل المقسم أمره فوض اليه تتم قرير العين

يا مولانا — هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها
والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التي ناديت فيها يا خيل الله اركبي ، وهذه الساعات
التي تزرع الشيب في الرؤوس ، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها
يل بنارها هي نعمة الله عليك وغراسك في الجنة ومحملات محضرك (يوم تجد
كل نفس ما عملت من خير محضرا) وهي مجوزاتك على الصراط ، وهي
مثقلات الميزان ، وهي درجات الرضوان . فاشكر الله عليها كما تشكره على
الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر . ومن رباطة
جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله : « لو كان الصبر والشكر بعيرين
ما باليت أيهما أركب » .

وبهذه العزائم سبقونا وتركونا ، لا نطمع في اللحاق بالغبار ، ونعوذ بالله
من العثار ، وما استعجل الله في القيام بالحق غير خير الخلق ، وقد عرفت
هاجري في سير الأولين ، وفي أنباء النبيين ، وإن الله تعالى حرص نبيه صلى الله

عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم، ويسلك سبيلهم. ويقتدى بأولى العزم
منهم، وما تغلو الجنة بثمر، وما ابتلى الله سبحانه وتعالى من عباده إلا
من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً، وكأن ما قد كان
لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظت العين كاللحم. وأهم
الوصايا ألا يحمل المولى همّاً يضعف به جسمه ويضر مزاجه، والأمة
بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في
نصرة الحق.

مناجاة

قرأ السلطان رسائل القاضى الفاضل ، فأحس بأن نفسه قد هدأت ، وإن قد نبض بشيئين عظيمين : أولهما الثقة بربه — وهى شىء لا ينبغي أن يفرط فيه مؤمن فى أخرج وقته ، وثانيهما الثقة بنفسه . وقد أصبح قبلة الاسلام فان وهن معه الاسلام ، وإن انتصر انتصر المسلمون معه فى مشارق الأرض ومغاربها .

فترك الرجل عكا وعاد بجيوشه الى القدس لأنه يعلم أن ملوك أوروبا إنما أتوا من بلادهم لاسترجاعه من يده .

وكان من أشد أولئك الملوك على الاسلام واحد منهم هو (ريشارد) ملك الانجليز ، وكان يعرف بين المسلمين باسم (الانكتار) ، كما كان يلقب بين الفرنج أنفسهم باسم (قلب الأسد) . والعجيب فى هذا الملك الشاب انه استطاع بدهائه ومكره أن يصيب من النجاح ما لم يصبه هو بسيفه ، ولا أصابه جميع الذين معه بسيوفهم ورماحهم .

غير أن هذا السلاح الذى شهره الملك فى وجه غريمه اذ ذاك وهو سلاح المسكر والدهاء ، كان يقابله من جانب السلطان سلاحان ماضيان هما : سلاح الإيمان والثقة بالله ؛ ثم سلاح الصبر وصدق العزيمة التى لا يعرف الوهن اليها سبيلا ما . وذلك كله الى ذكاء فى السلطان وفطنة لم تجز عليها قط حيلة من حيل هذا الداهية .

جمع (قلب الأسد) اخوانه الأمراء ، وذكرهم بالغاية التى أتوا من أجلها وهى انقاذ بيت المقدس ، ثم صفهم وسار بهم اليه ، وكان السلطان قد سبقهم إلى

هناك ، واشتغل باعداد نفسه للقائم حتى حدث ما لم يكن له في حسابان . فقد
دب الخلف يومئذ بين أمراء السلطان ، واستيأس بعضهم من المضي في القتال ،
واجترأ بعضهم على أن طلب من السلطان دستوراً لينصرف كل إلى بلاده ،
ويلتفت إلى مصلحة رعيته بعد إذ سئم جنده الحرب وتعبت خيلهم من عرك
البحر .

رباه ما أشد وقع هذه الصدمة على نفسك أيها الرجل ، فقد رآك أصحابك
قد غبت عنهم لحظات وأنت بينهم ، وكانت كل لحظة منها أشد على نفسك من
فقد ولد من أعز أولادك عليك .

غير أن هذه الحالة التي غشيت السلطان لم تدم طويلاً حتى أفاق منها واهتدى
لفكرة عزم على تنفيذها وخلاصتها : انه امر باستدعاء أمرائه ليكلّمهم .
فاجتمعوا في خيمته ثم أمر القاضي بهاء الدين بن شداد فجعل يحثهم على الجهاد ،
وكان مما قاله لهم : ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعة الصحابة
رضى الله عنهم على الموت في لقاء العدو . ونحن أولى من تأسي به صلى الله عليه
وسلم . والرأى عندي أن تجتمعوا عند الصخره وتتخالفوا على الموت . ولعل
ببركة هذه النية يندفع العدو :

فوافق الجماعة على ذلك وتحالفوا وقالوا كلاماً في هذا المعنى . فلما رأى
السلطان ذلك منهم وقف لينخطبهم ، والهيبة من رؤيته ، والخبيل منه يحجبان
الكثيرين منهم عن النظر إلى وجهه فقال :

الحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلبوا انكم جند الاسلام اليوم
ومنعتة ، واتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة بدمكم ، وان
هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا انتم . فان وليتم بانفسكم طوى البلاد

طى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، لانكم اتم الذين تصديتم لهذا
وأكلتم مال بيت المال . والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام »

ثم جلس السلطان ، وانتدب الأمراء أحدهم لجوابه فقال : « يامولانا نحن
عمالك وعبيدك . وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطينتنا . وليس لنا
الا رقابنا وهى بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت . »
فقرت بذلك عين السلطان وطاب قلبه وعأودته نفسه وهش لجنده ودعاهم
جميعاً الى طعام اصابوا منه ثم انصرفوا .

كل ذلك والعدو قريب من القدس يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يستقر رأيه
على الهجوم ، ويشجعه عليه ريشارد ملك الانجليز ، ثم تعاوده ذكرى حطين ،
فيقل ذلك من عزمه ويفكر فى الأمر من جديد .

أما السلطان فلم يطل سروره بحلف الصخرة الا ريثما أتاه نبأ خطير ، فيه
أن بعض أمرائه — وكان غائباً عن المجلس — ماض فى العصيان ، وانه يرى
إلا ضرر من التخلي للعدو عن القدس ، وانه لذلك لا يشترك مع السلطان لا فى
حماية المدينة ولا فى حصار عسقلان — وعسقلان هى الطريق الى بيت المقدس .
ثم قال الأمير الثائر انه يفعل ذلك حتى لا يصيبه ويصيب جنده ما أصاب المسلمين
من قبل فى حصار عكا . !

إذ ذاك عاود السلطان حزنه وانقباض قلبه ، وقام فى خيمته يندود عن عينه
النوم . قال بن شداد : واقمت فى خدمته تلك الليلة ، فكانت من الليالى التى
أحييتها فى سبيل الله : وذلك حتى أذن مؤذن الفجر ، فأدى الرجال صلاة الصبح ،
ثم أطرقا طويلاً واذا بابن شداد يقبل على مولاه قائلاً له : « يامولاي — لقد
وقع لى واقع اعرضه عليك . قال : وما هو ؟ قلت : اذا كثر عل الرجل حزنه ،
وتضاعف همه ، وعجز عن دفع شئ منه ، لم يكن له بد من الرجوع لربه . وهذا

يوم الجمعة — وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة — ونحن في القدس — وهو أبرك موضع — فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لا يشعر به أحد ، ويصلي بين الأذان والإقامة ركعتين ويناجي فيها ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف له تعالى بالعجز ، فلعل الله يرحمه ويستجيب له .
ففعل السلطان ذلك ، واذن مؤذن الجمعة فصلى ركعتين وسجد فيهما فأطال السجود وناجى ربه بما أحب ودموعه تقطر من عينه . ثم أقيمت صلاة الجمعة فصلاها وخرج من المسجد .

وفي صباح اليوم التالي وصل من أخبر السلطان بأن الفرنج اختلّفوا في قصد القدس ، وظهر منهم من اقترح الذهاب إلى مصر بدل القدس ، وانتهى بهم الخلاف في الرأي إلى أن حكموا في أمرهم ثلثمائة رجل من وجوهم ، وحكم الثلثمائة اثني عشر رجلا منهم ، ثم حكم الاثنا عشر ثلاثة منهم فقط ، وبات الجيش على حكم الثلاثة فما أمروا به قام عليه . فلما أصبحوا حكم الثلاثة بالرحيل إلى الرملة وترك القدس ، فلم يجد القوم سيلا إلى المخالفة . ففرح السلطان فرحا عظيما وفرح المسلمون معه .

لعل هذه مرة من تلك المرات النادرة الوقوع في تاريخ الحروب ، والتي فيها نرى قائداً عبقرياً ، وسياسياً ألمعياً يحارب خصمه بأدوات منها حسن العقيدة واطهار العجز لالعدوه ولـسكن الله الذي بيده الخير والشر .

بل لعل هذه مرة من تلك المرات النادرة الوقوع في تاريخ الحروب ، والتي نرى فيها رجلا عسكرياً لا يفكر في الادعاء بخصومه ، والرضى بظروفه ، والقل من عزيته ، والعدول عن خطته قبل أن يعود الى ربه يشكو اليه بشه ، ويفوضه فيما أهمه ، فلعل الله يخلق بعد عسر يسرا أو لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، والله يعطى نصره من يشاء .

مُصَاهَرَة

في رواية انجليزية عنوانها الطلسم **Talisman** لمؤلفها الكاتب الانجليزي سير ولتر سكوت **W. Scott** أن نبوءة شاعت في أوساط الصليبيين مؤداها أن صلاح الدين سيقترن بابنة عم الملك ريشارد ملك الانجلز . وأن هذه النبوءة بلغت مسامع الأميرة فباتت من أجلها حزينة كئيبة ، لأن الشرف الانجليزي والدين المسيحى يأبان عليها أن تكون زوجا لملك مسلم ، وهى إنما تؤثر عليه في نفسها رجلا شجاعا زعمت أنه أبلى بلاء حسناً في الحروب الصليبية ، ثم ظهر فيما أنه وريث عرش اسكتلندا .

وتلك هى الفكرة التى نسجت حولها قصة هذا الكاتب العظيم . ونريد هنا أن نقول ان لهذه الفكرة أصلاً فى تاريخ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ، وإن كان البعد عظيماً بيد هذه الفكرة التى دارت حولها القصة وبين حقائق التاريخ . فالثابت من هذا التاريخ أن صداقته نشأت بين ريشارد ملك الانجلز وبين الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين . وكان أمر هذه الصداقة عجباً ، وكان فى الوقت نفسه سدياً من أسباب الصلح الذى سفر فيه العادل بين الملكين العظيمين .

والظاهر أن الذى أوجد هذه الصداقة بينهما أمران : أحدهما دهاء بالغ من جانب ريشارد ، والثانى كرم وحسن خلق بدأ من جانب السلطان . فلقد كان السلطان مثلاً من أمثلة النبيل واحترام الخصم ، لا يغدر ، ولا يحمل فى قلبه غلا لـه ، وذلك ما كان يعرفه الخصم منه منذ اللقاء الأول ، بل ذلك ما جعله يستيقن من أنه لا ينال من السلطان مثلاً بطريق العنف أو

القوة بقدر ما ينال منه بطريق اللين أو المذلة . وجاء تاريخ العلاقة بينه وبين ريشارد شاهداً على هذه الأخلاق .

أما ريشارد فقد سلك في محاربة غريمه طرقاتي ، كان في أثنائها يعنف مرة ويلين أخرى ، وكان يعتمد في كل ذلك على المكر والدهاء ، ولكن مكره ودهاءه لم يجوزا على غريمه ، لأن غريمه كان عل علم تام بأخلاق خصمه وخبرة جيدة به فمن هذه الطرق التي سلكها ريشارد ، أنه فكر منذ وطئت قدمه أرض المشرق أن ينشئ ودأ بينه وبين السلطان . غير أن السلطان كان من المروءة وكرم الطبيعة بحيث لا يقبل من أحد ودأ حتى يكون أقدر من صاحبه على بذله والمضى فيه إلى نهايته ، والود في نظره غل في عنقه لا يستطيع الفكك منه . ففكر ريشارد في أن يصل إلى قلب السلطان عن طريق أخيه الملك العادل . وكان الملك العادل أقل من أخيه صلابه ، وأكثر منه مرونة ، وأقوى منه على أعمال المكر والحيلة وكان بهذه الأخلاق أدنى إلى نفس الملك ريشارد وأكثر شبهاً به من السلطان . وتأكدت الصداقة بين العادل والانكتار ، حتى كان هذا يدعو العادل دائماً بصديق وأخي . وانهما جالسا ن يوماً في مخيم الفرنج ، وإذا بالثاني منهما يعرض على الأول رأياً يجد فيه طريقاً إلى الصلح وإنهاء الحرب .

قال ريشارد للملك العادل عن طريق مترجم بينهما :

« يا أخي — لقد طال أمد الحرب بنا ، وأحسب أنها ستطول إلى أمد لا يعلمه أحدنا . والرأى عندي أن يتنازل السلطان لك عن البلاد التي احتلها بالساحل ، كما أتنازل أنا لأختي التي معي (وهي أرملة ملك صقلية) عن البلاد التي ملكتها وأن تتزوج أنت بأختي هذه ، ويكون القدس لكما بوصف كونكما ملكين محايدين ، تقبلان فيه المسلمين ، وتفتحان أبوابكما فيه لكافة المسيحيين ، ثم يبذل كل فريق منا أسراه للفرق الآخر . وأما صليب الصابوت فيعاد إلى الفرنج وبذلك تنتهي الحرب . »

وعرض هذا الرأى على السلطان فابتسم ابتسامة ماكرة وتظاهر بقبوله .
ومال على أحد أعصابه وقال له انها خدعة من الملك . وفى اليوم التالى أتى من
أخبره بأن القساوسة أنكروا هذا الرأى على الملك ، لأنه لا يملك تزويج أخته
المسيحية من ملك مسلم بدون أن يؤخذ فى ذلك رأى الرئيس الأعلى لديانة
المسيح .

ولكن ريشارد بعث إلى العادل من أخبره بأنه سير رسولا من لدنه إلى
البابا يستشيريه فى ذلك ، وأن الرسول يعود فى ستة أشهر . فان أذن البابا فذاك
وإلا زوجه الملك ابنة أخيه البكر . والبابا إنما يحتاج إلى إذنه فى تزويج الشيب
من بنات الملوك ، وأما البكر فيزوجها أهلها بدون إذنه ممن شاموا .

ويميل أكثر المؤرخين إلى أن فى اصرار الملك ريشارد على الاصهار إلى
صلاح الدين ما يدل على أنه كان صادق الرغبة فى تنفيذ هذه الفكرة ، وانه كان
شديد الإيمان بها ، لأنه روج لها بين المسلمين والمسيحيين ولأنه رأى فيها الحل الناجح
لمشكلة القدس ، كما رأى أن هذا الحل يصون كرامة الطريقين على السواء ، ويعتبر
فى الوقت نفسه خطوة جريئة لنشر مبادئ التسامح الدينى . فعسى أن يحل
هذا التسامح محل التعصب الذى زج بالعالم كله يومئذ فى سعي الحرب .

ومن أولئك المؤرخين السيد أمير على فى كتابه (موجز لتاريخ العرب)
قال فيه ما ترجمته عن الإنجليزية :

« ولو قد رضى القساوسة عن هذه الزيجة وأذنوا بها لكانت حدثا هاما
تنظر اليه على أنه جسر عظيم يعبر عليه السلام العالمى الذى يحلم الناس به
إلى اليوم » .

غير أن ريشارد ملك الانجلىز لم يكديحنى من وراء فكرته هذه غير سخرية
المسلمين ، وغير تدمير الصليبيين وثورة حال الدين . فعدل عنها إلى فكرة أخرى
من أفكاره التى تأتى بعد .

صُح

فشلت فكرة المصاهرة التي شرع فيها الملك ريشارد ، فلم ييأس هذا الملك من أفكار أخرى يعمل فيها عقله ويحرب حظه . ففطن في تعلقه بالملك العادل وجعل يبعث اليه والى السلطان بالهدايا ، وكان السلطان يرد عليه بخير منها ، واتصل الولد بينهما على هذا النحو .

ثم فكر الانكسار في رسالة كتبها الى السلطان جاء فيها قوله :

« أيها السلطان العظيم : تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد . وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس ، والصليب ، والبلاد . والقدس متعبدا ما نزل عنه ولو لم يبق منا إلا رجل واحد . وأما البلاد فيعاد اليها ما هو قاطع (الأردن) . وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار لها ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب . »

فلما قرأ السلطان الكتاب أمر بأن يكتب له الجواب وفيه قوله :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا وجميع الملائكة . فلا تتصوروا أننا نزل عنه . وأما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت . وأما الصليب فهلاكه عندنا قوة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي أوفى منها . »

في ذلك الوقت كان خلاف شجر بين ملوك أوربا الذين أتوا من بلادهم لتخليص بيت المقدس . وهو خلاف قسم الجيوش الصليبية قسمين متنافرين وكان من نتائجها أن عاد الملك فيليب الى بلاده وترك ريشارد يعمل وحده لتخليص بيت المقدس ، فلما رأى ريشارد ذلك ، قرأ جواب السلطان أرسل اليه رسالة أخرى حملها ابن أخته وجاء وفيها :

« أيها السلطان : هذا ابن أختي ملكته البلاد وسلته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك . ولو قد دعوتهم الى الشنق سمعوا وأطاعوا ، ثم ان جماعة من الرهبان قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وأموراً جرت في المراسلة مع الملك العادل فتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتي مقبرة أو خرابة قبلتها . »

فلما قرأ السلطان الكتاب جمع أرباب المشورة وسألهم عما يكون الجواب . فكلهم أشاروا عليه بالحسنى والملاينة . فالتفت السلطان الى بهاء الدين بن شداد وكان الى جانبه وقال له :

« والذي نفسى ونفس محمد يده أيها القاضى اننى لأحب الصلح الآن ولا أعمل له ! » قال القاضى « ولم ذلك يا مولاي ؟ » قال « لأنى أعلم أنه متى صالحناهم لا تؤمن غائلتهم ، فإنى لو حدث فى حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الفرج . فالمصلحة عندى الانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت : »

ومع ذلك نزل السلطان عن رأى الجماعة وأمر بكتابة الجواب الى الانكسار وفيه قوله :

« أيها الملك أما اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ان ابن اختك هذا يكون عندى ك بعض أولادى وسيبلغك ما أفعل معه . »

وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة : وأما بقية البلاد فنقتسمها فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بينهما يكون مناصفة . وأما عسقلان فتكون خراباً لا لنا ولا لكم والسلام .

وأتى الجواب الانكتار فقرأه وغضب لإصرار السلطان على تخريب عسقلان . وكانت لعسقلان أهمية حربية لأنها مفتاح القدس ، من ملكها فقد ملك القدس . وقد عرض السلطان على أمرائه وأجناده أن يحاصروها بخالفه الأمراء جميعاً في حصارها وخافوا على أنفسهم فيها يوماً كيوم عكا ، فلم ير السلطان بداً من خرابها ، وعيثاً حاول الانكتار رده عن هذا الرأي :

كل ذلك والقتال بين المسلمين والصليبيين على أشده ، بل كل ذلك والملك ريشارد لا ييأس من الظفر بعسقلان فبعث الى السلطان رسولا يسأله أن يمن على على الانكتار بعسقلان ويقول له في رسالة طويلة :

« وازك ان نزلت عنها أمكنك أن تقضى الشتاء بعيداً عن ميدان القتال »
فلما قرأ السلطان الرسالة ابتسم ابتسامة السخرية وكتب يقول له :

« أما النزول عن هذه المدينة فلا سبيل اليه . وأما الشتاء فاذا كان يسيراً عليك أن تقضيه هنا بعيداً عن أهلك ووطنك ، وبينك وبينه مسيرة شهرين ، أفلا يسهل على أنا أن أشتى وأصيف وأنا في وسط بلادى ، وعندى أهلى وأولادى ، ويأتى إلى ما أريد ؟ وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ونفضتها عنى والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف . وأنا أعتقد أننى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » .

فلما قرأ الانكتار جواب السلطان طلب أن يجتمع بالملك العادل فاذن له السلطان فى ذلك ، فسار اليه فى خيمته ، فاستقبله الملك استقبالا رائعاً برغم أنه

كان مريضاً قد أُلح عليه المرض منذ أيام؛ وأقبل على العادل يقول له: يا أخى الملك: إلى كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى. وأنا كنت أحرص على العود إلى بلادى. وأما الآن وقد همم الشتاء وتغيرت الانواء فقد عزمت على الإقامة . .

قال العادل « وماذا يضر السلطان لو طالَّت إقامتك أيها الملك . لقد فاضتته في شروطك ؛ وألححت عليه فيها فما كان جوابه إلا ما أجابك : فلك أن تطلب منه شيئاً آخر غير عسقلان فعسى أن يقبل أن يعطيك . .

قال ريشارد « فأنا أطلب منه يافا » وكانت يافا من المدن التى فتحها المسلمون في أثناء المفاوضة . فلما ذهب العادل إلى السلطان يكلمه فيها قبل . ففرح الانكسار بهذه المدينة ورجع عن الكلام في عسقلان . وقال لرسله « اذهبوا إلى السلطان وقولوا له : مبارك — رضينا بهذه القاعدة ورجعنا إلى مروءتك فان زدتنا فن فضلك وإنعامك . .

ثم كتبت نسخة الصلح ، وفيها أن تكون بلاد الشاطئ من صور إلى عكا بيد الفرنج ، وأما عسقلان فتكون خراباً ؛ وللمسلمين أن يقيموا في بلاد الفرنج وللفرنج أن يقيموا في بلاد المسلمين . وأما القتال فيقف بين الفريقين ثلاثة أعوام كاملة . .

وهذا هو الصلح الذى عرف في التاريخ باسم صلح الرملة ؛ وقع السلطان عليه بيده وحلف عليه وحلف الملوك والأمراء وأكابر الدولة معه . ثم ذهب الرسول بالنسخة إلى ريشارد فوجده مريضاً فقال « قد صالحت وهذه يدي ؛ ومد يده .

ثم أمر السلطان المنادى أن ينادى في الاسواق كلها : ألا ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل . إلا وأن طريق الحج قدفتح من الشام ؛ فمن كانت له رغبة في الحج فليعزم على بركة الله . .

وفاة

أمضى السلطان شروط الصلح . ثم من القدس إلى دمشق ، ودمشق من أحب المدن إلى نفسه لأنه قضى بها أيام الصبا . ولما علم الناس بوجوده بها أتوا لرؤيته بها من كل صوب ، وانهاه عليه الشعراء من كل حذب ، وأتاه الملوك من أولاده — كل يريد أن يتملاه ويستمتع بالنظر إليه .

وكان القاضى بهاء الدين بن شداد متخلفاً عن السلطان بدمشق ، فبعث السلطان من أحضره إليه ، فدخل عليه وقام السلطان للقائه ، وكان لقاء حاراً دمعت فيه عين كليهما فى ذلك الوقت .

ثم كان من أصحاب السلطان من بنى له فى دمشق التى يحبها قصرأ ، وأتى يدعوه للإقامة به . فنظر السلطان إلى القصر طويلاً ثم ابتسم واتجه إلى أصحابه قائلاً « ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد . فهذا منزل لا يصلح لمن طلب الموت . وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه . والله ان المسال والتراب لسواء عندى . وإن خيمة تعصف الرياح من خروقتها لأحب إلى نفسى من هذا القصر الذى ترون » .

فتعجب الحاضرون من قوله ، وفهموا سرأ من أسرار عظمتة ، وسبباً من أسباب انتصاره بمفرده على جميع ملوك الفرنج .

ورجع السلطان ورجع فى خدمته القاضى بهاء الدين بن شداد حتى أتيا بستاناً فدعا فيه أولاده الصغار فأخذ يداعبهم ويلطفهم ، وكان بالباب رسل من الفرنج قد حلقوا لحاهم ، وقصوا شعورهم على عادتهم ، فلما رأهم الأبطال صرخوا

وفزعوا إلى والدهم، فأمر والدهم أن ينتظروا ريثما ينتهى من تهدئة نفوسهم
• ويفرغ من مباسطتهم .

ثم دعا السلطان بالرسل فكلّمهم وانصرفوا ، ثم دعا بابن شداد وسأله عن خبر
الحجاج ، فقال انهم يدخلون دمشق غداً ، وفرح السلطان ، وأعد نفسه للقاءهم ،
وأمر بتنظيف الطرق وتجفيفها من الوحل .

وبعد ليال شعر السلطان بشيء من الثقل في جسمه ، واضطره الثقل إلى
ملازمة فرشه . وهنا ندع المكان لصديق السلطان — وهو هنا القاضى بهاء الدين
ابن شداد — فلتحدث لنا عن مرضه ثم موته ، قال :

« أصبح السلطان متكاسلاً عليه أثر الحمى حتى حضرت انا والقاضى الفاضل ،
ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا جميعاً عنده ، وأخذ يشكو من قلقه
طول الليل ، وطاب له الحديث إلى قرب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده .

وفي اليوم الثانى تقدم السلطان إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة ولده
الملك الأفضل . ومد الطعام وجلس الأفضل مكان أبيه ، فاستوحشنا وبكى الجميع
لجلوس ولده فى موضعه .

ثم أخذ المرض يتزايد منذ حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرفى النهار ، وندخل
إليه انا والقاضى الفاضل فى النهار مراراً ، وذلك حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد جلسنا فى سادس مرضه ، وأسندنا ظهره الى مخدة ، وأحضر ماء فاتر
ليشربه عقيب شرب دواء لتلين الطبيعة ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا
شدة حره ، وعرض عليه ماء ثاى ، فشكا من شدة برده ، ولم يغضب ، ولم
يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله — الا يمكن أحد تعديل
الماء ؟ ففوجئت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد البكاء ، والقاضى الفاضل

يقول لى : أنظر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على فقدها . والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدرح رأس من أحضره .

ولما كان التاسع من مرضه ، حدثت له غشية وامتنع عن تناول الدواء فاشتد الخوف فى البلد ، وغشى الناس من السكابة والحزن ما لا يمكن وصفه ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقصد اليه فى كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه . وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ثم تزايد اليبس على السلطان تزايداً عظيماً وتحير الأطباء من حوله . ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده وتحقق الناس موته ، أسرع فى تخليف الناس ، واستحضر القضاة ، وعملت له نسخة يمين تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته .

ولما كان السابع والعشرون من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة اشتد بالسلطان المرض ، وضعفت قوته ، واستدعيت أنا والقاضى الفاضل وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت . وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمرنا أن نبث عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأياً ، لأن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة ، يخاف ان لم نزل ان يقع الصوت فى البلد ، وربما نهب بعضهم بعضاً . فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضر الشيخ أبى جعفر — وهو رجل صالح — ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل ، حضر عنده وحال بينه وبين النساء . وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى . ففعلنا ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه .

وغاب ذهن السلطان فى تلك الليلة والى جانبه الشيخ أبوجعفر يتلو القرآن ، فلما انتهى الى قوله تعالى : هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ،

سمعه يقول : صحيح ! صحيح ! ثم لما أتى الى قوله تعالى (لا إله إلا هو عليه توكلت) تهلل وجهه وسلبها الى ربه .

قال ابن شداد : وكان يومالم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى ... الخ . ثم جلس الملك الأفضل للعزاء في اليوم الأول جلوسا خاصا ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين من رجال العلم . وفي اليوم التالي جلس الأفضل للعزاء جلوسا عاما ، واطلق باب القلعة ، فدخل الفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون يومئذ الا انه لم يؤذن لأحد من الشعراء أن ينشد شيئا .

وأخيراً تجهز الناس لدفن السلطان ، فدفن بقلعة دمشق ، ووقف الناس يبكونه بكاءً مرأ ، وانهم لفي بكائهم ونشيجهم واذا بالقاضي الفاضل يرفع في يده سيفاً ويقول لهم « هذا هو سيف مولاي ، ادفنوه معه فانه يتوكأ عليه الى الجنة . » وكذلك مات السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة واربعين درهما ناصرية ، ودينارا واحداً ذهباً ، ولم يخلف ماكا ، ولا داراً ، ولا عقارا ، ولا بستانا ولا مزرعة .

ثم ان الأساطير الاوروبية التي عنيت بوصف حياته ، أحسنت أيضاً وصف بمانته واحاطته بهالة من الاحترام والتقدير ، وصورت لنا بطل المسلمين وقد حضره الموت فدعا اليه حامل العلم وأوصاه قائلاً : انت الذي حملت رايتي في الحرب ، وأنت الذي تحمل رايتي كذلك بعد الموت . فدعها تكن خرقة بالية ، واحملها على رأس رح طويل ، وطف بها ربوع دمشق ، وادع الناس لينظروا اليها وانت تقول : هاهو ذا ملك الملوك ، مات ولم يأخذ معه سوى خرقة واحدة كهذه الخرقة البالية : وفي رواية أخرى : من جميع الممالك المترامية التي ملكها صلاح الدين ، والكنوز العظيمة الممتلئة بالذهب والفضة ، لم يستطع السلطان أن يأخذ لنفسه أكثر من هذه الاذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه التي لف به في قبره

عبرة

ثلاثة يمكن ان نعتد برأيهم؛ ونطمئن إلى حكمهم على صلاح الدين، لأنهم عاشروه ولازموه، وكانو أعرف الناس به وبخلقه وشمائله. هؤلاء الثلاثة هم القاضي الفاضل، وابن شدداد، والعماد الإصفهاني. وإذا ذهبت تصدق ما قال هؤلاء عن السلطان — فسقف معهم مبهوراً أمام عظمتهم، مؤمناً بأن الشرق لا يصلح له إلا رجل له نفس كنفسه وعزيمة كعزمته. فما هي بعض نواحي العظمة في هذا السلطان، وأياها أولى من غيرها بالإعجاب والإعظام؟

لقد تقرأ كثيراً عن نواحي الحرب، ولقد تعجب كثيراً بما يظهرونه من الشجاعة والصبر، ولكنك لم تسمع بعد — إلا في فترات قليلة بل نادرة من فترات التاريخ — أن جندياً جمع إلى نبوغه في ميدان القتال نبوغاً آخر في ميدان الأخلاق. وبحسبك أن تعلم أن صلاح الدين كان هو الرجل الذي بقي حياته كلها على سياسة الوفاء والجلاء وأنه كان أبعد الناس عن هذه الطرق الغامضة الملتوية التي نعرفها في أخلاق الساسة قديماً وحديثاً.

ولقد تقرأ كثيراً عن مشهورى الملوك، ولقد تعجب بما يظهرونه أحياناً من التواضع والتبذل وحسن السلوك، ولكنك لم تسمع إلا في فترات قليلة بل نادرة من فترات التاريخ — أن ملكاً — مهما بلغت ديمقراطيته من النضوج — قد أخضع نفسه للقانون، وسوى في ذلك بينه وبين أفراد شعبه، وجعل القانون فوقه لا تحته؛ ووقف أمام القاضي جنباً إلى جنب مع الخصم.

ولقد تقرأ كثيراً عن أخبار الفاتحين، ولقد تعجب بمهارتهم في اكتساح

المالك في وقت قصير ، ولكنك لم تسمع إلا في فترات قليلة — وإن لم تكن نادرة من فترات التاريخ — ان فاتحا دخل وفي يده النمي سيف يشهره ؛ وفي اليسرى رأى ينشره ، لا يعرف لحياته معنى إلا بنجاحه في نشر هذا الرأي الذي يؤمن به ويجزم بفوائده .

الحق لقد كان السلطان الملك الناصر صلاح الدين رجلا تجتمع فيه كل هذه الخصال بل رجلا يمكن أن تكون سيرته مثالا صالحا لكل واحدة منها فإذا اردت ان تزن صلاح الدين ؛ فلا تزنه بواحد فقط من عطاء التاريخ ؛ وإنما زنه بثلاثة أو اربعة منهم — يختص كل عظيم منهم بناحية من نواحي العظمة لا يمتاز بها احد سواه .

كان صلاح الدين نابذة في الحرب ، وكان قديساً لا نظير له في الغيرة على الشرع ، وكان ملكاً عادلاً ينصف الناس من نفسه ويسوى في القضاء كما قلنا بينه وبين أفراد الشعب ، وكان مع هذا كله مثلاً أعلى للخلق الديمقراطي في أروع مظاهره ، ثم مثلاً أعلى للغيرة على نشر العلم والأدب يبنى عليهما ساطانه ويعتمد عليها في ترقية بلده وإسعاد رعيته .

وأشهد لقد وجدت في هذه السيرة الموجزة التي كتبتها عن صلاح الدين أنه كان رجلاً يحارب أعداءه بأسلحة كثيرة منها سلاح الخلق أو الضمير ، وهو سلاح غريب وطراز من أدوات القتال عجيب ، ليت أن العالم كله قد تعلمه منه أو ليت أن المدينة الحديثة آمنت به وتلقته درساً نافعاً عنه .

ومن الأمثلة على هذه الميول الديمقراطية التي نعجب بها ، ولا نجد في أيامنا هذه نظيراً لها — قضية يوردها القاضي بهاء الدين بن شداد ويذكر أنه شهدا — قال :

« كنت يوماً بمجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل على شيخ حسن

تاجر معروف يسمى (عمر الخلاطى) معه كتاب فيه حكم يسأل فتحه . فسأله
من خصمك ؟ فقال : خصمى السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك
لا تحابى .

قلت وفى أى قضية هو خصمك ؟

قال : إن (سنقر الخلاطى) كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى إلى أن مات ،
وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها ، واستولى السلطان عليها ، وأنا
مطالبه بها .

فقلت له : يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟

قال : الحقوق لا تبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب ينطق بأنه لم يزل فى
ملكى إلى أن مات .

فأخذت الكتاب منه ، وتصححت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية سنقر
الخلاطى وأنه قد اشتراه من فلان التاجر يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا
وأنه لم يزل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا
الكتاب خروجه عن ملكه يوم ما . فتعجبت من هذه القضية وقلت الرجل :
لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم ، وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده :

فرضى الرجل بذلك واندفع . فلما اتفق مثولى بين يدى السلطان فى بقية ذلك
اليوم عرفته القضية ، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال : أكنت نظرت
فى الكتاب ؟

قلت : نظرت فيه ورأيت متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب
عليه « كتاب حكمى من دمشق ، وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون ،
قال : السلطان : مبارك — نحن نحضر الرجل ونعمل فى القضية ما يقتضيه

الشرع !! أقم عني وكيلا يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل إلى هنا .

ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه السلطان حتى جلس بين يديه ، وكنت إلى جانبه ، ثم نزل السلطان عن طراحته ثم ساوى الخصم به ، ثم قال له : إن كان لك دعوى فاذا كرها :

فقرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا ، فأجابه السلطان : إن (سنقر) هذا كان مملوكي ، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته ، وتوفي وخلف ما خلف لورثته :

فقال الرجل : لي بينة تشهد بما ادعيت :
تم سأل فتح الكتاب ففتحته فوجدته كما شرحه .
فلما سمع السلطان التاريخ قال :

عندي من يشهد أن (سنقر) هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وإنني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وإنه لم يزل في يدي وملكِي إلى أن أعتقته :

ثم استحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ذكره .
فأبلس الرجل ، فقلت للسلطان :

يا مولاي — هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد :
فقال السلطان : هذا باب آخر !!

وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة شذ عن مقدارها ، .

قال ابن شداد « فانظر إلى مافى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة ،
والانقياد الى الحق ، وإرغام النفس فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ! »
أجل — ومثل آخر من أمثلة حلمه وحسن تخلقه ربما كان أقل من المثل
السابق فى روعته — وإن لم يكن أقل منه قيمة فى عبرته « : —

قيل ان رجلاً من خدم السلطان رعى رجلاً آخر مثله بحذاء فى يده ، فاجتاز
الحذاء الخادم إلى السلطان فى خيمته ، فأدار السلطان وجهه ، وانتهجى به ناحية
أخرى كيلا يخرجهما — إلى أن ابتعدا عنه حياء منه فهب أن ذلك حدث
لبعض الناس فكم كان يؤذى خادمه ويضربه ولو بدعوى انه يؤذيه ؟ وفى الذى
ذكرناه من أخبار السلطان بعد فتح القدس من نقله الحجارة بيده ، وحمله
التراب على كتفه ، ومعاملة أعدائه الذين انهزموا معاملة قوامها العطف والحنان
ثم فى شفقه على الناس جميعاً لا فرق عنده فى ذلك بين انسان وإنسان ، مايكفى
بعضه لأن يرفع الرجل فى سلم الأخلاق إلى الدرجة التى قد لا يبلغها أحد سواه

على ان الحياة نفسها لم تكن فى نظر هذا الرجل عدوا يؤسر ، وبلاداً تقهر ،
وحصونا تنهار ، وحروباً تثار ، وإنما الحياة الصحيحة عنده هى فى علم ينشر
وأدب يزهر ، وعقيدة تظهر وتظهر ، لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من دخلها
ومن هنا جاء فضله على الحضارة الإسلامية والعمل الإسلامى فى القرون الوسطى
كان هذا الرجل يؤمن بأن العلم وحده سبيل الحضارة والرقى ، وعلاج
للنفوس التى مسها طائف من الاحاد أو الزيغ ، وكان يرى فى الفاطميين أنهم
أساءوا إلى أهل مصر إساءة دينية بالغة بل كان يرى أن مذهبهم أضر بالعقول ضرراً
يخشى أنها لا تصلح من بعده أبداً ؟ . والا — فقيم القول بعصمة على والأئمة
من بعده ، والعصمة فى الاسلام لا تكون لغير الأنبياء ؟ فقيم التبرك بالمازرات

والتسبح بالأعتاب والتالتوسل الى الله لا بالعمل الصالح ولكن بمن زعموهم من
الأقطاب والأولياء؟ ثم فيم التكلف في شرح القرآن الكريم، وفيم الاسراف في
تأويله لجمهور المسلمين، وفيم الاستعانة على هذا كله بالمنطق والفلسفة، بل فيم
الإغراق في أخذ المسلمين عن المجوس وغيرهم من أصحاب الفرق الاسلامية الغالية
كفرقة القرامطة؟ ثم ما العلم الباطن؟ وما الحدود الروحانية؟ وما الحدود
الجسمانية؟ وما هذه البدع الشيعية التي ذهبت ببساطة هذا الدين، وأضرت بعقول
المسلمين، وتركت أهل مصر وغيرها الى ما بعد الدولة الأيوبية؛ بل الى يومنا
هذا يأتون من الأعمال القبيحة والحركات السخيفة في بعض المساجد ما يندى
له جبين الدين ويستحي من بعضه جمهور العقلاء والمفكرين؛ ويقدرُونَ معه
هذه البد التي أسداها صلاح الدين الى المسلمين بردهم عن كل هذا السخف
أو العيب؟

ولكن في سبيل هذه الغاية الدينية ارتكب السلطان خطأ كبيراً في نظر
المؤرخين للحياة العقلية وهذا الخطأ هو أنه حارب الفلسفة والمتفلسفين، وعاون
فيما يزعم هؤلاء المؤرخون على احداث الشلل العقلي الذي أصاب الشرق منذ
ذلك الوقت.

نعم — حارب الرجل الفلسفة وطارد الفلاسفة، ولكن ليس معنى ذلك
مطلقاً أنه يعتبر مسؤولاً عن تأخر الحركة الفكرية على النحو الذي يتصوره
المؤرخون للحياة العقلية فهو انما طارد الحكماء والمتفلسفين، لأنه ثبت له بالدليل
القاطع أنهم المسؤولون عن زيغ المسلمين، وبهم استعان الفاطميون على غزو
أذهان العامة والخاصة ومنهم أخذ هؤلاء الطرق التي فاسدوا بها مذهبهم وأحدثوا
بها بمذهبهم صدعا عظيما في جبهة الدين الإسلامي.

وأذن فأولى لمن يؤرخون للحركة العقلية في القرون الوسطى أن ينظروا إلى صلاح الدين على أنه الرجل الذى حرر عقول المسلمين، وغسل عقيدتهم من أوصار الأوهام والبدع التى أتى بها الفاطميون، ونهض منذ الساعة التى وُطئت فيها قدمه أرض مصر بنشر المدارس فى طول البلاد وعرضها، وكان له هدفان عظيمان من وراء نشرها، وهما: إعادة الناس إلى المذهب السنى من جهة، وإشاعة الحماس الدينى فى قلوبهم ضد الخطر الصليبي من جهة ثانية.



وإلى جانب تلك النواحي الحرية والخلقية والعلمية والحضرية كان لهذه الشخصية ميل ظاهر إلى الناحية الأدبية ولا ريب أن نفساً كهذه النفس، كان لابد لصاحبها أن يكون أديب الطبع مرفه الحس بل من أجل هذا كان استمتاعه بعالم الروح أظهر من استمتاعه بعالم المادة. فلم يحفل يوماً بأن يكون له قصر أو حديقة أو مزرعة، ولا حاول أن يستمتع بما يستمتع به الملوك من ترف ونعيم وأبهة. بل كان إذا ذكر المال أمامه يقول « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب »، وكأنه كان هذا القول يعنى نفسه وماذا يقول التاريخ فى رجل كان له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته ثم لا يعرف عنه أنه ادخر مالا استحق عليه الزكاة، أو استطاع الحج لخلو يده عما يليق بأمثاله من الملوك وذوى الجاه؟

وأما ميوله الأدبية نفسها فهى أوضح من أن ندل عليها، فلقد كان السلطان يهتز اهتزازاً عظيماً للشعر، وكان يظهر استحسانه للجيد منه ويكثر من ترديده فى مجالسه. وقيل أن ديوان الحماسة لأبى تمام كله كان من حفظه، وكان كثيراً ما ينشد قول الشاعر:

وزارنى طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولي به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى نيل المنى فاستحالت غبطينى أسفا
وكان يعجبه قول شاعر مصرى فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منازل
فكان إذا قال « ولكن مات الشباب » يمسك كريمة وينظر إليها ويقول :
أى والله مات الشباب !!

بتلك الأخلاق التى اشتهر بها صلاح الدين ، وبهذه النزعات التى عرفها فيه
المسلمون والصليبيون أصبحت له شخصية جذابة استطاعت أن تؤثر فى الخلقين
الشرقي والأوروبي فى القرون الوسطى ، فأما الخلق الشرقى فقد شاع فيه الميل
الى التضحية وإنكار الذات ، وساده نوع من التصوف والزهد فى نعيم المادة
وأما الخلق الأوروبى فقد تلخص عندهم فى نظام لهم هو (نظام الفروسية) وهو
نظام يعتمد على طائفة من أخلاق دينية وأخرى مربية . وقد اتفق الباحثون
من الأوروبيين على أن أوروبا قد اقتبست هذا النظام البديع نفسه عن المسلمين
وذلك فى الحروب الصليبية التى اشتبكوا فيها مع صلاح الدين ورأوا فيها بسالته
بأعينهم ولمسوا عظمته بأنفسهم ، ثم عادوا الى بلادهم وقصوا على مواطنيهم أخبار
هذا البطل الإسلامى الجليل ، فتأثر بأخباره الأوروبيون ، وأخذوا ينسجون
حواله القصص والأساطير ، وكان لهذا كله أثر عظيم فى الحياتين الأدبية
والاجتماعية فى أوروبا فى القرون الوسطى .

﴿وبعد﴾ فهذه أطراف من سيرة رجل عظيم ومحارب إسلامي قديم ،
وكان كثيراً ما يكتفى من دنياه بخيمه مقصف الرياح من خروقهها ، وطعام يسير
أقد لا يكفي أهون من عنده من الخدم ، ولباس خشن لا يصح أن يقاس بلباس
الوزراء والكبراء ومن دونهم في دولة كالدولة الفاطمية التي أزالها ، يقضى
نهاره على ظهر جواد لا يريح ولا يستريح ، ثم يقضى أكثر ليله في جهاد قائم
على ذكر وعبادة وتسييح ، وكانما الخيمة التي ينام فيها صومعة عابد أو دير راهب
وعلى هذه الطريقة الحشنة قضى الرجل معظم حياته حتى مات وهتف التاريخ
في أذن الدنيا بهذه العبارة التي نسمعها منه كلما انقضت دولة وأتت أخرى
وهي قوله :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانها وكانهم أحلام

صلاح الدين الأيوبي

مهداة

إلى الأديب المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة مع التحية (١)



بطل الشرق غير خاف بلاؤه

أرضه تزدهى به وسماؤه

صور من محاسن صاغها الله

مثالاً تباركت أسماؤه

رق حتى لقيط : نفحة روض

كلت وشى زهره أنداءه

وسطا ، فالحمم أحمر لا يؤمن

بالليل والنهار لقاءه

(١) تفضل الأستاذ الشاعر على الجندي فأهدى إلي هذه القصيدة الجليلة فأقدم له
أصدق الشكر المؤلف

وَعَفَا ، فَالْحَيَاةُ فَأَتَتْ إِلَى الْجَا

نِي ، وَفِي مَخْلَبِ الرَّدَى حَوْبَاؤُهُ

لَمْ يَكُنْ «يُوسُفُ» الْجَمَالَ ، وَلَكِنْ

«يُوسُفُ» النَّبِيلُ مَا حَوَاهِ رَدَاؤُهُ

ابْنُ «يَعْقُوبَ» وَابْنُ «أَيُّوبَ» صَنَعَ

قُدْسِي إِلَى السَّمَاءِ اتِّمَّاءُ

دَائِمُ أَعْدَائِهِ وَيَأْتِيهِمْ مِنْهُ

بَلَاءُ مَنَّةٍ - عَلَيْهِمْ دَوَاؤُهُ

وَالْأَسَارَى ضَيُوفُهُ ، وَعَرِيقُ

فِي النَّدَى مِنْ ضَيُوفِهِ أَسْرَاؤُهُ

أَيْدِيهِ خَلْفَ الْعَوَالِي مَجَايَا

هَ وَأَبْلَتْ دُونَ الظُّبَا آرَاؤُهُ

كَيْفَ يَطْوِي الْخِذْلَانُ أَعْلَامَ جَيْشٍ

الْبَطُولَاتِ كُلِّهَا نَصْرًا وَهَـ

كُلُّ غَازٍ لَمْ يَدْرِعَ شَرَفَ النَّفْسِ

سِ هَوَى قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ بِنَاؤُهُ

لَمْ يَكُنْ لِلصَّليبِ خَصْمًا ، وَلَكِنْ

حَامِلُوهُ - يَوْمَ الْوَعْدِ - خُصَمَاؤُهُ

شَهَرُوا السَّيْفَ ، وَالْمَسِيحَ بَرِيءًا

مِنْ مَسِيْفٍ يَسْتَلْهُمُ أَوْلِيَاؤُهُ

فَأَتَاهُمْ تَحْتَ « الْهَلَالِ » حَسَامٌ

لَيْسَ يَخْزِيهِ فِي الْهَيْجِ مَضَاؤُهُ

قینه الحق ، والشجاعة والبأ

س غراره ، والسماحة ماؤه

من سيوف الاسلام طابعه اخلا

لق ، لا « هنده » ولا « صنعائه »

عائ فيهم : فهارب واسير

وقتيلا . تناثرت أشلاؤه

يوم « حطين » ط كل رفيع

منهمو طاول السماء سناؤه

هكذا البغي ليس ينصر باغ

صارع المعتدي الاثيم اعتداؤه

وانثني خاشعاً ، وان راح مختأ

لا على قمة السحاب لواؤه

لَمْ تَرْمَحْ لَهُ الْخَيْلَةَ عَطْفًا

وَجَمِيلٍ مِنْ ظَافِرٍ خَيْلًا

حَامِي «الْقُدْسِ» أَيْنَ رِيشارْد؟ لَا أَيْنَ م

قَضَى اللَّيْثُ ، وَأَنْطَوَى حَلْفَاؤُهُ

فَارِسُ الْغَرْبِ رَاعَهُ فَارِسُ الشَّرِّ

ق ، وَيَدْرِي فَضْلَ الْفَتَى أَكْفَاؤُهُ

لَمْ تَخَيِّبْ رَجَاءَهُ حِينَ رَامَ السَّلَامَ

وَالْحَرُّ لَا يَخَيِّبُ رَجَاؤُهُ

لَا تَرْمِكِ الْوَغَى فَاحْلَافْنَا الْيَوْمَ

عَلَى دَفْعِ شَرِّهَا - خَلْفَاؤُهُ

رَبِّ خَصَمٍ سَقَاكَ صَابَأً ، سَقَاكَ الشَّهَدَ

صَفَوْا - مِنْ بَعْدِهِ - أَبْنَاؤُهُ

فِي ظِلَالِ « الْفِيحَاءِ »^(١) يَرْقُدُ حَرٌّ

طال - فِي نَصْرَةِ الْحَنِيفِ - عَنَاؤُهُ

كَانَ مِنْ دِينِهِ رَقِيبٌ عَلَيْهِ

ورقيب - عَلَى الرَّقِيبِ - حَيَاؤُهُ

أَشْرَفُ الْفَاتِحِينَ نَفْسًا وَسَيْفًا

مَنْ أَشَادَتْ بِفَضْلِهِ أَعْدَاؤُهُ

نَزَلَ الْخُلْدَ فِي الْحَيَاتَيْنِ لَا يَنْسَى

عَظِيمٌ ، وَلَا يَضِيعُ جَزَاؤُهُ

عَلَى الْجَنْدَى

فهراس

صفحة

١٢٢

(١) فهرست الموضوعات

١٢٨

(٢) فهرست الاعلام

١٣١

(٣) فهرست الاماكن

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ — ١١	أخوان
١٢ — ١٤	غلام
١٥ — ١٨	فريسة
٩ — ٢٣	وزارة
٢٤ — ٣٠	مؤامرة
٣١ — ٣٦	سلطان
٣٧ — ٤٣	شاعر
٤٤ — ٥١	جفاء
٥٢ — ٥٧	ميراث
٥٨ — ٦٥	ميشاق
٦٥ — ٧٠	توحيد
٧١ — ٧٧	قلب
٧٨ — ٨٣	حطين
٨٤ — ٨٨	حصار
٨٩ — ٩٤	صديق
٩٥ — ٩٨	مناجاة
٩٩ — ١٠١	مصاهرة
١٠٢ — ١٠٥	صلح
١٠٦ — ١٠٩	وفاة
١١٠ — ١١٨	عبرة
١١٩ — ١٢٤	قصيدة (مهداة للؤلؤف)

فهرس الأعلام

ابن الاثير : ٩ - ٥٠

ابن برى النحوى : ١٢

ابن ذى يزن : ٨٣

أبو تمام : ٤٨

أبو الطاهر بن عوف : ٦٦

أسد الدين شيركوه : ٧ - ٨ - ٩ - ١٢ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١

الامام مالك : ٦٦

ارناط : ٤٦ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢ - ٨٣

الخاتون ابنة نور الدين : ٥٦

الخليفة الفائز : ٣٧

الخليفة العاضد : ١٨ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٢ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٤٠

٤٢ - ٤٤ - ٦٠

السيدة الشريفة بنت الامام الحافظ : ٣٨

السيد أمير على : ١٠١

السيدة سيبلا : (Sybylla) ٧٨ - ٧٩ - ٨٢

السيدة فاطمة بنت النبی : ٤٢

الشيخ أبو جعفر : ١٠٨

الشيخ الخبوشانى : ٣٤

الصالح اسماعيل بن نور الدين : ٥٢ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٦٦

الصالح طلائع بن رزيك : ٣٧ - ٣٨

الطاهر السلفى : ١٢

العوام عيسى : ٨٦

القاضى السيد بن سناء الملك : ٦٨ - ٧٠

القاضى الفاضل : ٢١ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤

٦٦ - ٦٥ - ٦١ ٦٠ - ٥٩ - ٥٨ - ٥٢ - ٥٠ - ٤٧ - ٤٧ - ٤٦ - ٤١ - ٣٨ - ٣٥

١١٠ - ١٠٩ - ١٠٨ - ١٠٧ - ٩٥ - ٩١ - ٩٠ - ٨٣ - ٧٤ - ٧٣ - ٧٢ - ٧١ - ٦٩ - ٦٧

القاضي شرف الدين بن عصرون : ٣٦

الملك الأفضل : ١٠٩ - ١٠٨ - ١٠٧

الملك العادل : ١٠٥ - ١٠٤ - ١٠٢ - ١٠١ - ١٠٠ - ٩٩ - ٧٦ - ٦١ - ٤٣

المهلب بن أبي صفرة : ٩٢

الياروق : ٢٢

أمير امران : ١٠

باليان : ٧٥

بهاء الدين بن شداد : ١٠٦ - ١٠٣ - ٩٧ - ٩٦ - ٨٥ - ٧٣ - ٧٢ - ٧١ - ٦٩

١١٤ - ١١١ - ١١٠ - ١٠٩ - ١٠٧

بهاء الدين قراقوش : ٨٥ - ٥٩ - ٥٨ - ٤٧ - ٤٥

بولدوين : ٧٨ - ٥٢

تاج الملوك بوري : ٦٨

تقي الدين عمر : ٦١ - ٤٩

جودفري : ٨٢

رتشارد الأول : ١٠٣ - ١٠٢ - ١٠١ - ١٠٠ - ٩٩ - ٩٧ - ٩٥ - ٨٩

١٠٥ - ١٠٤

ريموند : ٨١ - ٧٩ - ٧٨ - ٦١ - ٥٦

سنقر الخلاطي : ١١٢

سيرولتر سكوت : ٩٩

شاو : ٣٨ - ٢١ - ١٩ - ١٧ - ١٦

شمس الدولة : ٤٥ - ٤٠ - ٣٠ - ٢٨ - ٢٦ - ٢٥

شهاب الدين الحارثي : ٥٧ - ٤٩ - ٢٢

ضرغام ١٦ - ٣٨

علي بن أبي طالب : ٦١

عماد الدين الاصفهاني : ٢٠ - ٣٦ - ٥٨ - ٥٩ - ٦ - ١١٠

عماد الدين زنكي ٧ - ١٣ - ٧٠

عمارة النفي ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١

عمر بن الخطاب ٧٤ - ٩٣

عمر بن عبد العزيز ٩

عمر الخلاطي : ١١٢

عموري (أمالريك) ٥٢

عميسى الهسكاري ٢٢ - ٣٢ - ٦٠ - ٨٤

فردريك باربروسا : ٨٩

فيليب الثاني : ٨٩ - ١٠٣

قطب الدين بن تليل : ٢٢

كنراد : ٧٤

كنز الدولة : ٤٣

محمد صلى الله عليه وسلم ٦ - ٧٨ - ٨٠ - ٨٣ - ٩٣ - ٩٦ - ٢٠

الدين أيوب : ٧ - ٨ - ٩ - ١٣ - ١٤ - ١٨ - ٢٥ - ٣١ - ٣٢ - ٣٤

٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١

نور الدين محمود : ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨

٢٠ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٧ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٦ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧

٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٧٠

يوسف (النبي) ٤٤ - ٦٢

فهرس الأماكن

أرمينية : ٧٠

انطاكية : ٧٧

الاسكندرية ١٧ - ١٨ - ٤١ - ٦٦

البئر البيضاء : ٢٨

الرملة : ٦٠ - ٦١ - ٧٥ - ٨٢ - ٩٨

الشوبك : ٤٥ - ٤٨

الفسطاط : ١٧

القاهرة : ١٧ - ٢٧

القسطنطينية : ٧٤

الكرك : ٤٥ - ٤٨ - ٦٠ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٩ - ٨٠

الموصل : ٧ - ٩ - ٥٥ - ٦٩ - ٧٠

بانياس : ٥٤

بعلبك : ٩ - ١٢

بغداد : ٧ - ٢٦

بلميس : ١٧

بيت الأحزان (بيت يعقوب — حصن النخاض) : ٦٢

بيت المقدس (القدس) ٧ - ٩ - ١٥ - ١٦ - ١٩ - ٣٣ - ٤٣ - ٥٢

٦٢ - ٧١ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٢ - ٨٤ - ٨٥

٨٩ - ٩٠ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٦

١١١ - ١١٤

تل حارم : ٥١

تكريت : ٧ - ٨

حصن برزیه : ۸۴

حطین : ۷۱-۷۸-۸۱-۸۳

حلب : ۵۲-۵۶-۶۲-۶۷-۶۸-۶۹-۷۰

حمام : ۵۶

حمص : ۵۶

دمشق : ۹-۱۰-۱۲-۱۴-۱۶-۱۷-۲۲-۲۵-۲۶-۳۱

۴۸-۵۴-۵۸-۶۰-۶۲-۶۷-۷۴-۱۰۶-۱۰۹-۱۱۲

دمياط : ۲۴-۲۹-۵۱

ديار بكر : ۶۲-۷۰

زبيد : ۳۷

صفين : ۴۲

صقلية : ۲۹-۴۰-۴۱-۱۰۰

صور : ۷۳-۸۵-۱۰۵

طبريه : ۷۱-۸۲

طرابلس : ۵۶-۶۱-۷۷-۷۸-۷۹-۸۱

عسقلان : ۷۲-۷۴-۹۷-۱۰۴-۱۰۵

عكا : ۷۱-۸۴-۸۵-۸۶-۸۷-۸۸-۸۹-۹۰-۹۲-۹۵-۹۷-۱۰۴-۱۰۵

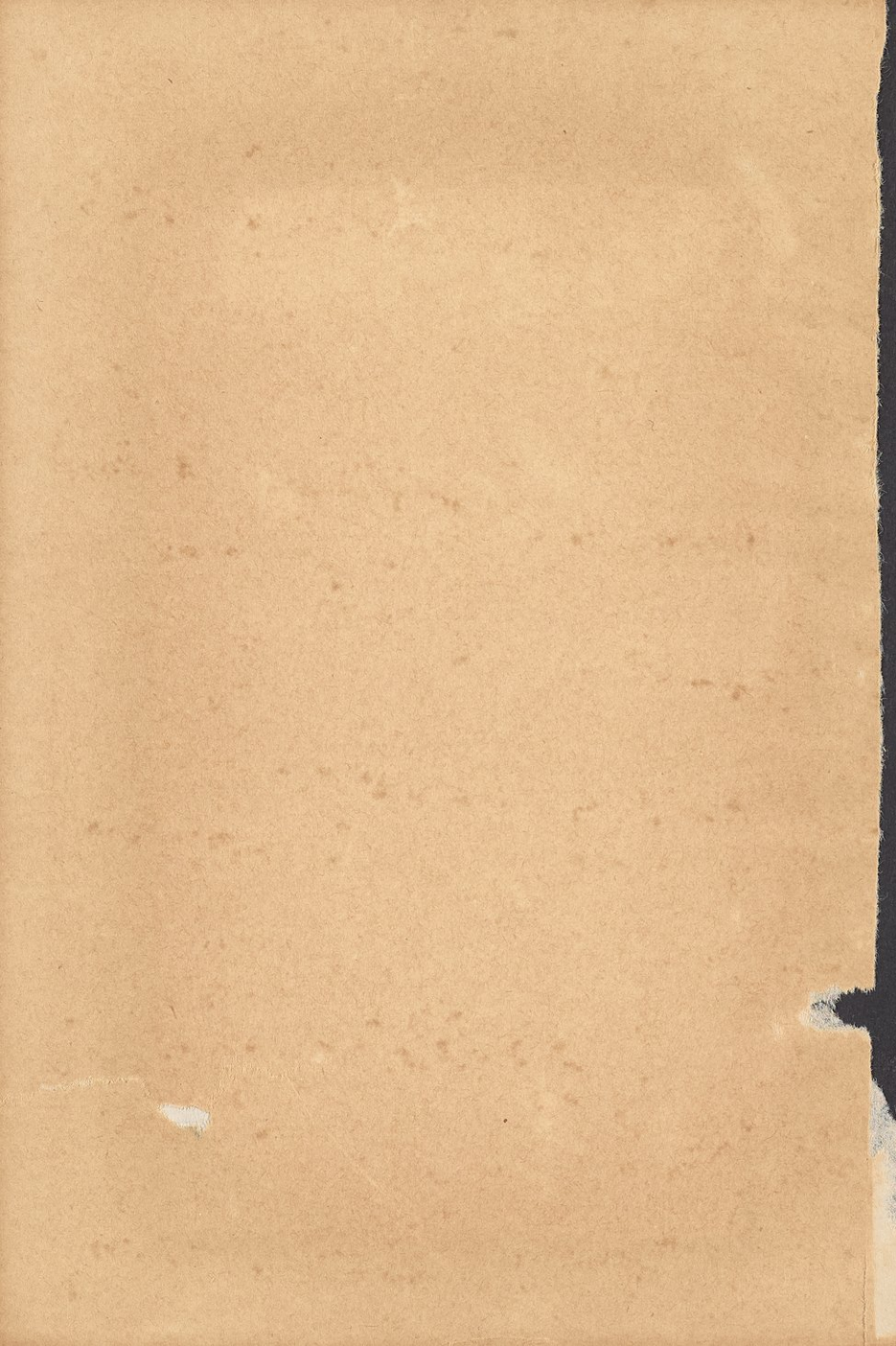
قلعة عزار : ۵۶

مرج عيون : ۶۱-۶۲

مضاف : ۴۳

مكة : ۳۷-۴۵

يافا : ۱۰۵



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28(946) M100			

893.791

Sa3133

MAR 4 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58895698

893.791 Sa3133

Salah al-Din.

893.791--Sa3133